الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:

عنوان المذكرة:

شعر الحروب والفتن في الأندلس "عصر ملوك الطوائف"

- دراسة تحليلية فنية -

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:

- ✓ بن حميود سيرين
- ✓ بولخصايم سعيدة

إشراف الأستاذ:

د. بوزكور مراد

أعضاء لجنة المناقشة:

د/ باوية صلاح الدين	جامعة جيجل	رئيسا
د/ بوزكور مراد	جامعة جيجل	مشرفا ومقررا
د/ رامول كريمة	جامعة جيجل	ممتحنا

السنة الجامعية:

1440/1439هـ

2019/2018م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:

عنوان المذكرة:

شعر الحروب والفتن في الأندلس "عصر ملوك الطوائف"

- دراسة تحليلية فنية -

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:

- ✓ بن حميود سيرين
- ✓ بولخصايم سعيدة

إشراف الأستاذ:

د. بوزكور مراد

أعضاء لجنة المناقشة:

د/ باوية صلاح الدين	جامعة جيجل	رئيسا
د/ بوزكور مراد	جامعة جيجل	مشرفا ومقررا
د/ رامول كريمة	جامعة جيجل	ممتحنا

السنة الجامعية:

1440/1439هـ

2019/2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقدمة:

كان الفتح الإسلامي معلما حضاريا وحدثا هاما امتزجت فيه حضارات سابقة مع حضارة جديدة هي الحضارة الإسلامية، التي انصهرت فيها عناصر بشرية متنوعة مشكلة حركة اجتماعية وثقافية كبيرة تتسم بالانسجام والوحدة، ولكن العصر الذي تلا الخلافة ونقصد به عصر ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري) اتسم بالفوضى والانقسامات والتناحر بين هذه الطوائف .

وتتفق المصادر على أن فترة ملوك الطوائف كانت أكثر الفترات اضطرابا سياسيا، برزت من خلاله الأندلس في صورة ممزقة مشتتة غير أن هذا التدهور السياسي لم يؤد إلى تدهور ثقافي وأدبي بل على العكس خلق حركة ثقافية وأدبية واسعة وأدى إلى غزارة الإنتاج الشعري في هذه الفترة خاصة فيما يتعلق بشعر الحروب والفتن مما يستدعي الوقوف على هذا الشعر.

ومن هذا المنطق كانت رغبتنا في اختيار هذا الموضوع الموسوم بـ: **شعر الحروب والفتن في الأندلس (عصر ملوك الطوائف) – دراسة تحليلية فنية –** محاولين الوقوف على شعر هذه الفترة واستخراج الخصائص المميزة له ، وقبل ذلك الأسباب والعوامل التي ساهمت في ظهوره.

وقد أسهم بحثنا في عرض المادة العلمية عرضا يستفيد منه غيرنا من المتفاعلين مع الشعر الأندلسي ، إذ حاولنا رصد أهم النصوص الشعرية في هذه الفترة، والأغراض التي خرج إليها شعر الحروب والفتن ، مع إبراز أساليب الشعراء في ذلك ، فكان لنا شرف الجمع والتصنيف والعرض والتحليل ، وإن كانت هناك دراسات سابقة مثل أطروحة الدكتوراه لنميري تاج السر أحمد لقمان الموسومة ب: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف اتجاهاته وخصائصه الفنية، الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف لفدوى عبد الرحيم قاسم وهي رسالة ماجستير.

ولقد كان اختيارنا لهذا الموضوع – شعر الحروب والفتن في الأندلس(عصر ملوك الطوائف) – دراسة تحليلية فنية – لعدة أسباب تراوحت بين الذاتية والموضوعية، فالأسباب الذاتية تتحدد في:

* إثارة الموضوع رغبة فينا كونه يتصل بمرحلة مهمة وحاسمة في التاريخ الإسلامي.

* إعجابنا بالموضوع في حد ذاته لأنه معبأ بالدلالات التاريخية والدينية والعاطفية، ولأن هذا الشعر يقدم لنا صورة كاملة ومتكاملة عن ذلك العصر (عصر ملوك الطوائف) ، أما الأسباب الموضوعية فتتلخص فيما يأتي:

* التعريف بجانب ولو يسير من شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف.

* تميز هذه الفترة بغزارة الإنتاج الشعري ، في مقابل انحطاط سياسي وتشتت جغرافي ،مما يجعلها فترة جديرة بالدراسة للكشف عن أساليب الشعراء وما جادت به قرائحهم.

* تسليط الضوء على أهم السمات الفنية لشعر الحروب الفتن في عصر ملوك الطوائف.

ويدور البحث برمته حول التساؤلات الآتية:

- ✓ كيف أثر هذا الواقع المتدهور على الحركة الشعرية؟ وكيف ساهمت الصراعات الداخلية و الخارجية في ظهور شعر الحروب و الفتن؟ .
- ✓ ما أهم الأغراض الشعرية التي كتب فيها شعراء تلك الفترة تحديدا؟ .
- ✓ ما الذي يمكن أن نقف عليه من خلال نصوص شعراء هذه الفترة؟.

انطلاقا من هذه التساؤلات جاء بحثا مقسما إلى مدخل تمهيدي ثم فصلين ، قسم كل فصل إلى مباحث سبقت جميعا بمقدمة على أن يتبع البحث بخاتمة، فأوردنا المدخل بعنوان شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف تعرضنا فيه لأهم أسباب وعوامل ظهور هذا الشعر ، إضافة إلى ممالك الطوائف ، وتعرضنا في الفصل الأول إلى الأغراض الشعرية لشعر الحروب والفتن في الأندلس (عصر ملوك الطوائف) .

أما الفصل الثاني من البحث فكان المجال فيه فسيحا للكشف عن الخصائص الفنية لشعر الحروب والفتن بداية بالمعجم الشعري المستعمل من قبل الشعراء، ثم البحث في التراكيب اللغوية والبلاغية التي أمدت للنصوص الشعرية روحها.

وكان ختام هذا الفصل وختام الدراسة بقراءة في التشكيل الموسيقي المتمثل في الموسيقي الخارجية والموسيقي الداخلية، والخاتمة كانت حوصلة ورصدا لأهم النتائج المترتبة عن الدراسة.

ولقد استعان بحثنا هذا في رسم معالمه بجملة من المصادر والمراجع منها التراثية ك: "الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني و"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" للمقري التلمساني والحديثة مثل: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين لإحسان عباس ، في الأدب الأندلسي لمحمد رضوان الداية وغيرها من المصادر والمراجع .

واقتضت منا طبيعة الموضوع أن نتبع في دراستنا منهجا فنيا تحليليا لأننا بصدد الوقوف عند النتاج الشعري لشعراء القرن الخامس الهجري في موضوع الحروب والفتن، والكشف عن فنياته وجمالياته، وهذا لا يمنع من وجود التأريخ خاصة فيما تتعلق بالتاريخ المتعلق بممالك الطوائف أو الإشارة إلى تطور الأغراض الشعرية.

أما عن الصعوبات فلا داعي الحديث عنها ذلك أننا نرى أن لذة البحث واستمراريته تنبع من تلك الصعوبات.

ونختم هذه المقدمة بتقديم كل الشكر والتقدير إلى أستاذنا المحترم الدكتور "بوزكور مراد" صاحب القلب الطيب ورمز الإنسان الصبور الذي كان لنا نعم الموجه والمتفهم فلكم منا عظيم الشكر والامتنان.

ولكم من الله عظيم الثواب.

الفصل التمهيدي

عوامل ظهور شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف

1- أبرز عوامل ظهور شعر الحروب والفتن

2- مماليك عصر الطوائف

الفصل التمهيدي: شعر الحروب و الفتن في عصر ملوك الطوائف

ما إن أطّل فجر القرن الخامس الهجري حتّى بدا جليًّا أنّ عهد الوحدة والمنعة والعزّة، في ربوع الأندلس قد آذن بالمغيب، حيث أصبحت الخلافة شكليّة، ثمّ أُلغيت تماما، فاستغل ولاة وحكام المدن الأندلسيّة الفرصة فاستبدوا بمدنهم وأعلنوها إمارات وممالك، ونصّبوا أنفسهم أمراء وملوكا عليها، وبهذا بدأ عصر جديد هو عصر ملوك الطّوائف قامت خلاله دويلات تتفاوت في المساحة والقوّة والعمر، وأهمّ هذه الإمارات أو الدّويلات: إمارة قرطبة، مملكة سرقسطة، مملكة طليطلة، مملكة إشبيلية، مملكة بطليوس، مملكة بلنسيّة، مملكة غرناطة.

كانت الحالة السّياسيّة في عصر ملوك الطّوائف متردّية بسب الصراعات الداخلية من جهة ، والصراع مع النصارى من جهة أخرى ، إلاّ أنّ الحالة الفكريّة والأدبيّة كانت على النّقيض من ذلك، حيث برزت حركة شعريّة واسعة، شكّلت صفحة مشرقة مضيئة في تاريخ الشّعر والشّعراء في مقابل صورة مظلمة حالكة في التّاريخ السّياسي لعصر ملوك الطّوائف.

ولعلّ شعر الحروب والفتن في هذا العصر–و نظرا للحالة السياسية التي كانت سائدة– قد طغى بكثرة التزاما من الشّاعر بقضايا عصره وهمومه، ولأنّ همّ الشّاعر همّ وطنيّ بالدّرجة الأولى لأنّ بلاده أصبحت مهدّدة بالضّياع ، فجاء هذا الشّعر باكياً تارة، مادحا ومستصرخا وناقدا أحايين أخرى، داعيا إلى التمسك بباعث الأخوة الإسلامية ،، كلّ ذلك من أجل الأندلس، فكان بحقّ توصيفا لحال الأندلس التي يرثى لها وتشريحا لمواطن الدّاء وسبيل إلى الدواء ،وسجلا تاريخيّا وتوثيقا للأحداث ، إنّه شعر موضوعيّ تبلغ فيه الوطنيّة ذروتها وصدق العاطفة أشدها في عصر التّمزق والتّشتت الإسلاميّ لبلاد الأندلس، إنّه شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطّوائف، الذي ظهر استجابة لعوامل وأسباب متعددة ولحاجة ملحة ، فما هي ياترى عوامل ظهوره ؟

1/ أبرز عوامل ظهور شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف :

رافق الشّعر الأندلسي وشعر الحروب والفتن على وجه الخصوص في عصر ملوك الطّوائف المحن والشّدائد التي مرّت بها الجزيرة الأندلسية وكان ظهوره انعكاسا لواقع مأساوي تميّز بالصراع والفتن والحروب، ولعلّ المطّلع على تاريخ الأدب الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري (عصر ملوك الطّوائف) ، يلحظ تعدّد الأسباب والعوامل التي أدّت إلى ظهور شعر الحروب والفتن التي يمكن إجمالها في ما يأتي:

أ- الصراع بين المسلمين والنصارى:

أتاح الانقسام والتجزّؤ الذي أصاب الأندلس وزوال هيبتها الفرصة للنّصارى ليفرضوا إرادتهم على المسلمين وينطلقوا في إحياء هدفهم القديم، ألا وهو استرداد الأندلس من أيدي المسلمين فيما عرف في التاريخ الأندلسي بحرب الاسترداد، وطبعا كان الاسترداد بعد إضعاف هذه الطّوائف الواحدة تلو الأخرى وزرع الفتن بينهم والتّحالف مع بعضهم ضدّ البعض الآخر،ولقد أصيبت الأندلس في عصر ملوك الطّوائف بهزّات عنيفة أسالت أقلام الشعراء وحشدت قرائحهم ، وهذه الهزّات التي تركت أثرا بعيدا وردّد الشعر صداها تمثّلت في ثلاث نكبات:

أولى هذه الهزّات سقوط (بربشتر) سنة 456 هـ على يد (النّورمانديين) الذي صكّ الأسماع و أطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة لشدّة ما أصاب النّاس من اجتماع الجوع والعطش والتّنكيل.[1]

كان لسقوط (بربشتر) أثر عميق في نفوس الشعراء من هؤلاء " أبو حفص الهوزني"، الذي لم يجد بعد سقوط (بربشتر) بدّاً من توجيه رسالةً يُضمّنها شعرا إلى أقوى أمراء ملوك الطوائف آنذاك "عبّاد بن محمد" الملقّب " بالمعتضد" حاكم مملكة إشبيلية يحضّه على الجهاد لاسترجاع (بربشتر) ويستنجد به لإصلاح حال الأندلسيين. ووضع حدّ للأوضاع المتردّية آنذاك بحكم المكانة التي تؤهله حسب ما يرى " الهوزني" حيث يخاطبه قائلا:[2]

---

[1]- ينظر: إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين ، دار الشروق للنشر و التوزيع، رام الله فلسطين، ط 1 ، 2001 ص 16 ، 17.

[2]- ينظر: فاطمة مفلح مرشد العبد اللات : الحض على الجهاد في الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين ، رسالة دكتوراه ، إشراف الدكتور صلاح جرار ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية 2007 ص 35 ، 36.

أَعبّادٌ كَلَّا قَدْ علوت فَضَائِـــــلَا تَقَاصَرَ عَنْهَا كُلْ أَرْوَعُ مَاجِـــدُ

و(بربشتر) أحد مدن مملكة بني هود، وسببها المباشر هو الصّراع العنيف بين " المظفّر بن هود "وأخيه " المقتدر" الذي سجن إخوته وأخذ ملكهم ولم يقدر على أخيه " المظفّر" فاستعان بالنّصارى عليه ، فكانت (بربشتر) تحت سيطرة المظفر عندما احتلّها النّورمانديون ، وسقوطها كان نتيجة حتمية لتفرّق دول الطّوائف وانشغال حكامها بالتّنافس على السّيادة.

وقد بدأت مأساتها عندما أغارت قوّة من (النّورمان) والفرنسيّين يُقدَّر عددها بعشرة آلاف فارس في سنة 456 هـ، فحاصرت المدينة لمدّة أربعين يوما والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة، و وقعت الحرب سجالا بين الطرفين. وتخاذل "المقتدر بن هود" عن نجدة المسلمين فيها، ومع ذلك تمكّن أهلها من قتل خمسمائة من المهاجمين، وطال الحصار فاضطربت أحوال المدينة، ووقع بين أهلها تنازع في القوات وبعد ذلك دخل المدينة خمسة آلاف مدرّع، فدُهش النّاس وتحصّنوا بالمدينة الدّاخلة، وجرت بينهم حروب شديدة وسُدّت عين الماء التي تُعتبر المصدر الرئيسي لهم فانقطع الماء، فطلب أهلها الأمان على أنفسهم فأعطاهم العدوّ الأمان فلمّا خرجوا غدر بهم ونكث عهده، وقد تعرّضت المدينة إلى صُنوف من التّنكيل والتّعذيب.[1]

ويصف "ابن عذارى" ما حلّ بـ (بربشتر) قائلا: " كانوا يهتكون حريم أسراهم وبناتهم إبلاغا في نكباتهم، ويعبثون بالثيّب، ويفتضّون البكر، وزوج تلك وأبو تلك موثقا بالحديد".[2]

كان خطبُ (بربشتر) أعظم من كل وصف، وما حلّ بأهلها يندى له الجبين لقد جرح كيان الأمة الإسلامية ودفع بالأدباء والشّعراء إلى إرسال صرخاتهم المدوية عاليا وفاضت قرائحهم بأصدق وأغرّ القصائد في شعر الحروب الفتن، ويأتي صوت الفقيه "ابن العسّال" مدوّيا في الآفاق ليعكس حجم الكارثة وعمق المأساة يقول:[3]

---

[1]– فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، إشراف د.وائل أبو صالح ، ماجيستير في اللغة العربية و آدابها ،كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، نابلس ، فلسطين ص 193.

[2]– ابن عذارى : (محمد المراكشي) :البيان المغرب ،تحقيق ،ج س كولان ، ليفي بروفنسال ، الدار الثقافة ، بيروت– لبنان ، ط 3 ، 1983، ص 226.

[3]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 195.

وَلَقَدْ رَمَانَـا المشْرِكُونَ بِأَسْهُـــمٍ لمَ تخط لَكِنْ شَأْنُهَا الإِصْمَاءُ

هَتَكُوا بخَيْلِهِـــمُ قُصُورَ حَرِيمِهَا لمَ يَبْقَ لاَ جَبَلٌ وَلاَ بَطْحَـاءُ

جَاسُوا خِلاَلَ دِيَارِهِم فَلَهُمْ بهَا في كُلِّ يَوْمٍ غَارَة شَعْـــوَاءُ

بَاتَتْ قُلُوبُ المسْلِمِينَ بِرُعْبِهِـمْ فَحُمَاتُنَا في حَرْبِهِم جُبَنَـــاءُ

ويقول أيضا:[1]

كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرَحَمْ به طفل وَلَا شَيْـــخٌ وَلَا عَـــذْرَاءُ

وَلكـــمْ رَضيعٍ فَرَّقُوا عنْ أُمِّـــهِ فَـلَهُ إِلَيْهَـــا ضَجَّةً وَبَغـاءُ

إن واقعة ومأساة (بربشتر) وحدها كافية لتنج لنا شعر الحروب والفتن ، ولتدفع الشعراء إلى استنطاق الحجر لو كان ينطق، فالمشاهد المروّعة التي حلّت بهذه المدينة كافية وحدها لتقدّم لنا شعرا غزيرا وصادقا فما بالك بالنّكبات الأخرى التي حلّت ببلاد الأندلس في عصر ملوك الطوائف.

أما الهزة الثانية فهي كارثة (طليطلة) فقد ذهبت هذه المدينة من أيدي المسلمين إلى الأبد، فراحوا يتحسّرون لسُقوطها ويحضُّون المرابطين على استردادها، لقد كان تنازع ملوك الطّوائف واستعانتهم بالأعداء ضد بعضهم البعض سببا في سقوط (طليطلة) وغيرها من المدن الإسلامية في مستنقع النصارى. لذلك نلمح إصرار الأندلسيين على استردادها، والذي كان نوعا من محاسبة الذات والحنين إلى المجد السالف.[2]

فهذا "الأعمى التيطلي" يحُضُّ الأمير "سير بن أبي بكر" على معاودة المحاولة لاسترداد طليطلة يقول:[3]

شـــــافهْ طليطلة مـاذا تريـدُ بـــها بِالعَطْفِ إنْ أشكَلَ التوكيدُ والبـدل

أَمْطَرْتَ ما حولها الموتَ الزؤامَ فهـلْ من عَوْدةٍ أيُّها العـــارضُ الهَطِـل

---

[1]- المرجع السابق، ص 196.

[2]- لمزيد من المعلومات حول سقوط طليطلة ومحاولة المرابطين استعادتها ينظر: ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ص 82 ، 93 ، 109 ، 116 ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص182.

3- فاطمة مفلح مرشد العبد اللات : الحض على الجهاد في الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف و المرابطين ، ص 48

سقطت (طليطلة) واسطة العقد في الأندلس ، وغرس في جسد الأمة الإسلامية والوطن الأندلسي مرض خبيث ظل ينشر سُمومه إلى الجسد كُلّه ، فتخرج من أعماق هذه المأساة أشعارا تقطر حُزنا تارة وتدعو إلى الجهاد تارة أخرى، وتتنوّع رسائلها لتُلامس الأفئدة والقلوب وتعظم خطاباتها عظم وهول هذه الكارثة التي حلّت ببلاد الأندلس؛ فها هو شاعر مجهول يرسُم صورة وجدانية يستحضر فيها صورة المرأة الثّكلى لإثارة مشاعر المتلقّى تجاه الحدث المهول(سقوط طليطلة) وذلك في قوله:[1]

لثَكْلِـك كيف تبتسم الثُّغُورُ سُـرورًا بعـدما بَئِست ثُغـورُ

ويُصوّر ما آلت إليه (طليطلة) بعد سُقوطها حيث يقول:[2]

طُلَيْطِلَـة أَبَـاحَ الْكَفْرُ مِنْهَـا حَمَـاهَا إِنَّ ذَا نَبَأ كَبِيـرُ

فَلَيْسَ مِثَـالُهَا إِيـوَان كِسْـرَى وَلَا مِنْهَا الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيـرُ

وَكَـانَتْ دَار إِيمَانٍ وَعِلْـمٍ مَعَالِمهَا الَّتِي طُمِسَتْ تُنِيـرُ

فَعَادَتْ دَار كفر مُصْطَفَـاة قَدِ اِضْطَرَبَتْ بِأَهْلِيها الْأُمُـورُ

مَسَاجِدهَا كَنَائِس أَيَّ قَـلْبٍ عَلَـى هَذَا يُقِـرُّ وَلَا يَـطِـيرُ

ولم تكن كارثة (طليطلة) آخر المآسي، بل نزلت هزّة مصيبة ثالثة أروع من سابقتيها فقد اجتاح السيد "القنبيطور" مدينة (بلنسية) عام 487 هـ، ارتكب فيها جرائم فظيعة من أبرزها قيامه بحرق قاضيها "ابن الجحّاف"[3]، أمّا أهل (بلنسية) فتفشّت فيهم الأمراض، "فبينما الرّجل يمشي يسقط ميّتا فتناقص أهل بلنسية كثيرا ".[4]

روّع سقوط (بلنسية) الأندلس بسبب سياسة الحرق وتدمير المعالم الإسلامية ومشاهد الدّمار، فالبلنسيّون أرهقهم الحصار الذي استمر لأكثر من عشرين شهرا اضطرّوا خلاله لأكل القطط والفئران وجثث الموتى، كما

1- فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 202 .

2- المرجع نفسه، ص 203.

3- المرجع نفسه ، ص 208.

4- المرجع نفسه ، ص 209 نقلا عن ابن عذارى : البيان المغرب ، ص 37 ، 38.

اضطرّهم الجوع إلى مغادرة المدينة رغم تهديد "القمبيطور"[*] بإحراق من يغادرها حيّا ، فأحرق في يوم واحد ثمانيّة عشر رجلا علانية، فكيف لهذه المشاهد وهذه الفواجع ألاّ تُذيب قرائح الشعراء؟ فمن لم يكن شاعرا في ظلّ هذه الظروف والمآسي سيتدفّق منه الشعر وينساب انسيابا.

كل هذه العوامل من سقوط (بربشتر) و(طليطلة) و(بلنسية) وما صاحب ذلك من أحداث أدّت إلى ظهور شعر الحرب والفتن فهذا الشاعر " ابن خفاجة " يصوّر الدّمار الذي لحق (ببلنسية) قائلا:[3]

عَـاثَتْ بِسَاحَتِـكِ العِدَا يَـا دَارُ وَمَـحَا مَحَاسِنَك البِلَى وَالنّـــارُ

فإذَا تَـرَدَّدَ فِي جَنَابِكَ نَاظِـــرٌ طَـالَ اعْتِبارٌ فِيكَ واسْتِعْبَـارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَت الخُطُوب بأَهْلِهَا وَتَمَخَّضَتْ بخَـــرَابِهَا الأَقْـــدَارُ

كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَـا لاَ أَنْـتِ أَنْتِ وَلاَ الدِّيَارُ دِيَارُ

وللشّاعر "أبي الوليد الوقشي" قصيدة تاهت معالمها العربية بعد ترجمتها من النّص الاسباني على يد الدكتور "الطاهر أحمد مكّي" في خمسة عشرة مقطعا تنبض بالرّوح الإسلامية يصف فيها الفاجعة التي هزته فيها يقول: "بلنسية... بلنسية مصائبٌ كبيرةٌ تُحدّق بك أنت تحتضرين، إذا قُدّر لك النّجاة فسيراه عجيبا من يعش ويرابط".[4]

هذه النّكبات والظروف السياسية والاجتماعية التي باتت سائدة في القرن الخامس الهجري (عصر ملوك الطوائف) أنتجت لنا أو ساهمت في وفرة وغزارة شعر الحروب والفتن الذي رصد الأحداث وسجّلها واستنهض الهمم ودعا إلى الوحدة ونبذ الفرقة وبكى المدن وانتقد ومدح، بل ساهم أحيانا في صناعة بعض الأحداث.

وتُعدُّ واقعة (الزلاّقة) ، وهي المعركة التي انتصر فيها الأندلسيون على النصارى بمساعدة يوسف بن تاشفين من أهمّ الملاحم الإسلامية التي فاضت لذكرها قرائح الشعراء وخاصة شعراء المديح وعلى رأسهم " ابن وهبون

---

[*] القنبطور اسمه الحقيقي Rodrigo De Vivo من قرية vivo والمراجع العربية تسميه لودريغ. رودريغ وهو من فرسان اسبانيا النصرانية ينظر: بولعراس خميسي: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس ص33 .

[3]- فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 210 .

[4]- المرجع نفسه، ص.212

المرسي" و"ابن القزّاز" و" أبو بحر يوسف بن عبد الصّمد " وغيرهم... وكلّهم أشادوا بملكهم " المعتمد بن عبّاد "وذلك لجسارة "المعتمد" وإقدامه في المعارك الإسلاميّة كما عدّدوا فضائل أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" "فابن القزّاز" يمدح "المعتمد" الذي ثار فلم تسبقه الرّياحُ، وقد خاض غمار الحرب ومحا الفساد وأبدله بالصّلاح يقول:[1]

ثَنَـــاؤُكَ لَيْـــسَ تَسْبِقُهُ الرِّيَـاحُ يَطِيرُ وَمِنْ نداك لَهُ جَنَاح

لقد حَسُنَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَشَبَّـتْ فَغَنَّتْ وَهِي نَاعِمَـةُ رَدَاحُ

جَنبت إِلَى الأعَادي أُسْدَ غَاب بَرَاثِنُهَا الْمُهَنَّدَةُ الصِّفَـاحُ

ويمدح عبّاد بن تاشفين قائلا:[2]

غَـــزْوٌ عَلَيْـكَ مُبَـــارَكٌ في طَيّـه الفَتْـحُ القَريـــبُ

للّـــــه سَيْفُـــكَ إنَّـــهُ سَخَطٌ عَلَى دين الصّليب

كلّ هذه الأسباب والعوامل من حروب وانتصارات وهزائم وتقلّبات لأوضاع الأندلس كانت كفيلة بأنّ تُقدّم لنا أرقى نماذج شعر الحروب والفتن وأصدقه عاطفة.

ب/ الفتن والحروب الدّاخلية بين ملوك الطوائف:

أدّى التفكّك السياسي والفرقة والحروب الداخلية ،إلى تدهور حياة الأندلسيين وانتشار الفساد وانعدام الأمن، فإلى جانب ترصُّد العدوّ الخارجي كان أمراء الطوائف مُنغمسين في لذّاتهم ، يستعينُ بعضهم بالأعداء لمحاربة بعضهم، وانعكس هذا الواقع على فنّ القصيد حيث أضحت الكلمة بمثابة السّيف الذي يسلّط على الرّقاب.

---

[1]– نميري تاج السر محمد لقمان: الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، اتجاهاته وخصائصه الفنية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف د.صالح آدم بيلو، جامعة أم درمان الإسلامية ،كلية اللغة العربية ، قسم الدراسات الأدبية و النقدية ، 1426 هـ – 2005م ، ص .

[2]– المرجع نفسه، ص .

ولا يمكن فصل الأدب والشعر عن ظروفه الزّمانية والمكانية، لأنّه الرئة التي يتنفّس بها المجتمع و المعبّر عن حال الأمّة وكيانها، قوّتها وضعفها وفسادها، فهذا "السّميسر أبو القاسم خلف الإلبيري" ينتقد مواطن الفساد في المجتمع بجرأة وقوّة وصراحة، ويحمل على ملوك الطوائف تقاعُسهم وتخاذلهم عن نصرة الإسلام واستنصار بعضهم بالإسبان ويحرّض الأندلسيين على خلع طاعتهم حيث يقول:[1]

نَـاد المِلُــوكَ وَقُلْ لَهُـمْ مـاذا الَّذِي أَحْدَثْتُم

أَسْلَمتُم الإِسْـلامَ فِـي أُسْرِ العِدَي وَقَعَّدْتُم

وَجَبَ القِيَـامُ عَلَيكـمْ إِذْ بِالنَّصارَى قُمتُـم

وَلا تَنْكَرُوا شَقّ العَصا فَعَصا النَبِيّ شَقَقْتُم

ويُشخِّص لنا "ابن العسّال" مواطن الدّاء في المجتمع وكثرة الذنوب قائلا:[2]

لَوْلا ذُنُوبُ المسْلِمين وأنهم رَكبوا الكَبائِر مالهُنَّ خَفــاءُ

مَا كـان يُنْصُر لِلنَّصــارَى فارس أَبَداً عَلَيهِم فَالذُّنُوب الدّاءُ

ويبيّن شاعر آخر انغماس أمراء الطوائف في ملذّاتهم وإهمالهم لشؤون الرّعية قائلا:[3]

فِــي كُلِّ يَوْمٍ غـرِيــبٌ فِيهِ مُعْـتَبر نَلْـقَـاهُ أُو يَتَلَقّــانَا بِــهِ خَبَــرُ

أَرَى المِلُــوكَ أَصَابَتْهُــمْ بِأَنْـدَلُــسٍ دَوائِـرُ السُّوء لا تُبْقِي وَلا تَــذر

نَامُوا وَأسرى لَهُم تَحْتَ الدُّجَى، قَدَرٌ هَوَى بِأَنْجُمِهِمْ خَسْفا وَما شَعَرُوا

ونتيجة للسّياسة الخاطئة التي اتّبعها أمراء الطّوائف مع بعضهم بعضا ومع والعدوّ الخارجي أثقلوا كاهل السّكان بالضّرائب، " وكانت الضّرائب التي فرضها الأمراء على النّاس باهظة لحاجتهم إليها في سدّ ثغرات فتحوها على أنفسهم، وأكبر الثغرات ثلاث: الضريبة السنوية التي يتقاضاها "الأذفونش"، ثم الضّريبة المفروضة لدفع مرتّبات الجند وترتفع كلما كانت الحروب الفتن دائرة بين الأمراء أنفسهم وهي في الأحوال العادية "جِزْيَة " على

[1]- فاطمة مفلح مرشد العبد اللات: الحض على الجهاد في الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين ص 23 ، 24.

[2]- المرجع نفسه، ص 24.

[3]- المرجع نفسه، ص 24.

الرّؤوس تُسمّى القطيع، وضريبة على الأموال من الغنم والأبقار والدّواب وقِبالات على كل ما يُباع في الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد"[1]

ويصف لنا الشّاعر المجهول ذلّ الحكّام وأمراء الطّوائف وخضوعهم "للاذفونش" وذلّ النّاس الذين رضوا بالخنوع للحاكم الأجنبي إما حرصا على الرزق أو لفقر وحاجة، وإما استهانة بالأمور الدّينية في قوله:[2]

تجَادبنا الأعادي باصْطِنـَاعٍ فَيَنْجَذبُ المخَوّلُ والفَقِيرُ

فَبَاقٍ في الدّيانة تحت خِزيٍّ تثبطه الشُّويهَةُ والبَعِيـــرُ

وآخرُ مَــارِقٍ هانتْ عليــه مصائبُ دِينِهِ فَلَهُ السَّعِيرُ

لقد تعدّدت العوامل الدّاعية إلى ظهور شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطّوائف، وبالإضافة إلى الأسباب السّالفة الذّكر نجد أن سُخط العامة ودعوتهم إلى التغيير والقضاء على عوامل الفساد والتّحريض على أعداء الإسلام والمسلمين والذين يقدّمون المصالح الشخصية على حساب المصلحة العامة والرعية والدّولة كان من أهم الأسباب أيضا.

وتذكر لنا المصادر التّاريخية أن يهوديًا يُسمّى "ابن النّغْرِيلَة" اتّخذه" أبو القاسم بن العريف وزير "حبوس بن ماكس " كاتبا له، وكان داهيّة خبيثا درس بقرطبة الدّيانة اليهودية وكلّ ما اتصل ببحوثها التّلموديّة مع ما درس من الثقافة والآداب العربية، وخلفه "باديس" حتى سنة 467 هـ ، وفي عهده أصبح ابن "النغريلة " رئيس وزرائه بحسن تدبيره لشؤون المال، وبالغ "باديس" في الثّقة به، بينما كان يَعُدُّ نفسه حامياً لليهود داعما لهم بوظائف الحكم والضرائب ويرعى شؤونهم التجارية و"باديس" لا يدري شيئا من شؤون الحكم، وبلغ من عِدائِهِ للإسلام أن كان لا يجد حرجًا في استهزائه به، وأقسم أن يَنْظِمَ القرآن في أشعار، وخلفه بعد وفاته

[1]- إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين ، ص 33 ، 34.

[2]- المرجع نفسه، ص 148.

ابنه"يوسف" في الوزارة، لكن النّاس ضاقوا درعاً به وبسيطرة اليهود وزعيمهم "يوسف" في مملكة غرناطة وأخذ الشّعراء يستثيرون العامّة للثوّرة عليهم وفي مقدمتهم "السُّمَيْسِرْ" و"أبو الحسن يوسف بن الجد" القائل:[1]

تَحَكَّمَتِ اليَهُـودُ عَلى الفَرُوجِ وَتَـاهَتْ بِالبِغَالِ وَ بِالسُّـــرُوجِ

وَقامَت دَوْلَةُ الاَنْــذالِ فِيــنا وَصار الحُـكْمُ فِينــا لِلعُلُـــوجِ

فَقُل لِلأَعْـوَرِ الدّجَـالِ هَــذا زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلى الخُرُوجِ

واختلّت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يَجْبُونَ الضّرائب من اليهود وأهل الذّمة أصبح اليهود هم الذين يَجْبُونَهَا، وأثار هذا الوضع الشاعر"أبا إسحاق البيري" فانفجرت ثورته بقصيدة حماسية ملتهبة قائلا:[2]

ألا قُل لِصِنهاجَـــة أَجمَعين بُدورِ النَدِيَّ وَأُسدِ العَريــن

لَقَــد زَلَّ سَيِّـــدُكُم زَلَّـــةً تَقـرُّ بِها أَعــيُنُ الشامِتيــن

تَـخَـيَّـــرَ كـاتِبــهُ كافِــراً وَلَو شاءَ كانَ مِنَ المسلِمين

فَعـزَّ اليَهـودُ بِـــهِ وَانتَـخَوا وَتاهوا وَكانوا مِنَ الأَرذَلــين

وَنالوا مُناهُم وَجازوا المدى فَحانَ الهَلاكُ وَما يَشعُـرون

ويُحرِّض "أبو إسحاق الألبيري" على قتله فيقول:[3]

فبــادِرُ إِلَى ذَبْــحـه قُرْبَــة وضح بِهِ فَهُو كَبْشٌ ثَميــنَ

وَلا تَحْسِبنَ قَتَلَهُم غَدْرَةٌ بل الغَدْرُ في تَرْكِهِم يعِيشُــونَ

وَقد نَكـثُوا عَهْدنَا عِنْدَهُم فَكَيْفَ تلام على النّاكِثِيْنَ

مما سبق ذكره يمكن القول أن من أهم أسباب ظهور شعر الحروب والفتن في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ، الصراع مع النصارى ، والذي تمثل تحديدا في ثلاث نكبات هزت الأندلس ، وهي سقوط بربشتر ، وضياع طليطلة

---

[1]- ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول و الإمارات بالأندلس ، دار المعارف ، كورنيش النيل ، القاهرة ، مصر ، د . ط ، 1989 ، ص 225.

[2]- المرجع نفسه، ص 226

[3]- المرجع نفسه، ص226.

وسقوط بلنسية ، وما صاحب ذلك من أحداث ، أضف إلى ذلك الصراع بين ملوك الطوائف ، وسياستهم الخاطئة مما أفرز ثورة شعرية جاءت كرد فعل على ذلك الوضع المتدهور لتعبر عن واقع الأندلس في ذلك العصر .

2/ ممالك عصر الطّوائف:

يمثّل عصر الطّوائف أكثر عصور التاريخ الأندلسي تشعُّبا واضطرابا ويشغل زهاء سبعين أو ثمانين عاما من تاريخ الدولة الأندلسية، ورغم اختلاف الدّارسين في تحديد الفترة الزّمنية لهذا العصر بالتّحديد ،إلّا أنّه يؤرَّخ له بالقرن الخامس الهجري ،الذي عرف تفكّك الدولة الأندلسيّة وانقسامها إلى وحدات متعدّدة تقوم من كلّ وحدة منها دولة أو مملكة من ملوك الطوائف، مستقلّة عن باقي الممالك ، ولا تربطها بجاراتها أيّة رابطة، إنّما اشتدّ التنافس بينها والحرب الأهلية في سبيل التوسّع والتحالف مع الأعداء النّصارى ضدّ بعضهم البعض، هذه الدول تعرف بدول الطوائف ،ويعرف رؤسائها بملوك الطّوائف وهم مابين وزير سابق وقائد من ذوي النّفوذ أو شيخ قضاء أو زعيم من ذوي المال والحسب أو حاكم لإحدى المدن، وقد ظهروا جميعا بعد ضعف الدولة الأندلسية وانهيارها، حيث بسط كل واحد منهم نفوذه على ما أتيح له من المدن والأراضي، وانقسم ملوك الطوائف وممالكهم إلى ثلاث طوائف، كل طائفة منهم تسيطر على ممالك معيّنة ويحكمها العُرف والجنس وهي كالآتي:

أ- الطائفة الأولى: ومثّلها أهل الأندلس وتتكوّن من موالي الأمويّة وهم في المقام الأوّل بنو جهور أصحاب قرطبة، والعرب الذين استقروا فيها واختلطوا مع الإسبان مع مرور الزمن[1] وشملت الممالك الآتية:

❖ دولة بني جهور بقرطبة:[*]

وأوّل القائمين منهم بالأمر "أبو الحزم بن جهور" باختيارٍ من شعب قرطبة، وتشمل هذه الإمارة مدنا أخرى منها (جيان وبيّاسة وأبدة)، وقد قامت سياسة "أبي الحزم" على التآلف والمصادقة دون الحرب، ولما توفي

---

[1]- ينظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، د.ط، ص 255، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع رام الله، فلسطين، ط 1 ، 2001،ص 13، 14.

[*] تأسست (422 هـ - 463 هـ)،ينظر: إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين، ص 14 .

خلفه ابنه "ا لوليد بن جهور " فسار على سيرة أبيه، وبين أطماع " بني عبّاد " و " بني ذي النّون " في قرطبة سقطت المدينة في أيدي العباديّن وزالت دولة بني جهور بعد أربعين سنة من الحكم.[1]

❖ بنو القاسم الفهريون في البونت:[*1]

مؤسّس هذه الإمارة "عبد الله بن قاسم "ثمّ خلفه إبنه "محمد بن عبد الله" الملقّب "بيمين الدولة" ثمّ "أحمد عزّ الدولة" ، وينسبون إلى أسرة عربية من نسل "عبد الملك بن قطن الفهري"، وقد تعرّضت هذه الدولة لغارات السيد "القنبيطور" دفعت له الجزية حتى استولى عليها المرابطون.[2]

❖ مملكة بني عبّاد اللّخميين باشبيلية:[*2]

تعتبر من أهمّ وأقوى ممالك الطّوائف وأعظمها شأنا وزعامة ومساحة ، بل مثّلت مرجعية لكلّ الممالك. مؤسّس هذه الدولة هو القاضي "إسماعيل بن عبّاد"، بدأت أوّلا في اشبيلية ثم ظلّت تتّسع حتى أصبحت أكبر دولة من دول الطّوائف، فقد استولى "المعتضد" على (لَبلة) وعلى حصون من مملكة (بني الأفطس) وعلى (ولْبَة) وعلى جزيرة (جَلْطِيشْ) و(شنتمرية) الغرب، ثم فتح مدينته (شَلَبْ) وولّى عليها ابنه "المعتمد"، وبذلك أصبحت الدّولة تمتد من شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي غربا والجزيرة الخضراء جنوبا، إلاّ أنّ "المعتضد" كان كغيره من ملوك الطوائف يدفع الجِزْيَة "لفرناند"، ولما جاء "المعتمد" سار على سياسة أبيه في التوسّع فاستولى على (مرسية) وتحرّش بمملكة غرناطة، وفاوض "ألفونس" ليحالفه لكي يحتلاّ غرناطة معًا، وظلّ "المعتمد" يدفع الجِزْيَة "لألفونس" حتى اضطرّ إلى الاستعانة بالمرابطين بعد سقوط طليطلة.[3]

❖ مملكة بني هود الجذاميون بسرقسطة:[*]

---

[1] – إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين ، ص 14

[*1] تأسست سنة (400 هـ-495 هـ). إحسان عباس: المصدر السابق ص 14، بولعراس خميسي، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، إشراف مسعود مزهودي، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، قسم التاريخ وعلم الآثار، 2006- 2007، ص33 .

[2] – إحسان عباس : المصدر السابق ص 14، بولعراس خميسي، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، إشراف مسعود مزهودي، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار 2006 -2007 ، ص 33.

[*2] تأسست سنة (414هـ -484هـ)، ينظر إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، ص 12 .

[3]- ينظر إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، ص 12، بولعراس خميسي، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، ص33.

[*] تأسست سنة (408 هـ -503 هـ) ، ينظر : بولعراس خميسي ، مرجع سابق ص 34 ، نقلا عن ابن الخطيب : أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام ، تح ليفي بروفنسال ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط 1 ، القاهرة ، 2004 ، ص 170 ، 171 ، .173

تولّوا الحكم بعد زوال دولة التجيبيّين التي كانت تحكم (سرقسطة) قبل انفجار الفتنة، وتنتمي إلى "المنذر بن يحي التجيبي" حتى استولى عليها "سليمان بن محمد بن هود"، الذي كان واليا على (لاردة) ودامت له السلطة سنة 431 هـ /1039م، وساس الإمارة وهناك يرى أن بني هود جزء لا يتجزأ من التجيبيين[1]، وكانت لهذه المملكة هي الأخرى اليد الطولى في أحداث الأندلس، فدارت بينها وبين الممالك حروبًا سجالاً في الثقافة والقوّة العسكرية، وسرقسطة أو الثّغر الأعلى الذي يشمل (سرقسطة) وأعمالها بـ (تيطلة) و(شبقة)، (بربشتر)، (لاردة)، (طركوتة)، (طرطوشة) ، وهي أطيب البلدان وأكثر بنيانها من الرّخام وتسمّى بالمدينة البيضاء وتقع شرق الأندلس[2] وكان "سليمان بن محمد بن هود" في حرب مع "المأمون بن ذي النون"، ولجأ كلّ منهما إلى ملك من ملوك الأسبان يستعين به في هذا الخلاف، وقبل موت "سليمان " قسّم مملكته بين أولاده الخمسة فجعل منها خمس ممالك متنابذة ، أبرز الإخوة أحمد الملقب "بالمقتدر"، وقد تغلّب على ثلاثة من إخوته وقامت بينه وبين الرابع "حسام الدولة" منازعات طويلة وفي عهده غزا "النورمانديون" مدينة (بربشتر) سنة 456هـ ، فتقاعس عن إنجادها لأنّها من أملاك أخيه ثم فاء إلى ضميره وأعان على استردادها، وكان "المقتدر" يدفع الجِزْيَةَ لملوك قشتالة واستعان بالسّيد "القنبيطور" ومن معه من جنود ومرتزقة وكذلك استولى على (دانية) سنة 468 هـ فتجدّدت الفتنة بين خلفائه وعاد كّل من "المؤتمن" وأخيه "المنذر" يستعين بالأجانب، وكان "المؤتمن" يعتمد على جهود السّيد "القنبيطور" وكان هذا البطل الأجنبي هو العقل المدبّر واليد الفعّالة لدى "المؤتمن" وبجهوده تمّ الاستيلاء على (بلنسية)، وقد اتّخذه "المؤتمن" أداة يصدّ بها زحف المرابطين حتى وجد أنّ " شانجه " (شانو) " الأراجوني " يهدّد مملكة سرقسطة، فلجأ إلى حماية المرابطين إلى أن قتل سنة 427 هـ ، وتسلّم المرابطون المدينة بدعوة من أهلها.[1]

---

[1] – ينظر : بولعراس خميسي ، مرجع سابق ص 34 ، نقلا عن ابن الخطيب : أعمال الأعمال في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام ، تح ليفي بروفنسال ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط 1 ، القاهرة ، 2004 ، ص 170 ، 171 ، .173

[2] – الحميري (أبو عبد الله): جدوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تح إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، ق 1، ط 2 ، القاهرة ، بيروت ،–لبنان 1973 ، ص 96 ، 98 .

[1]– إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين، ص 13، 14.

❖ بنو حمّود الحسينيون:[1*]

بلغ عدد أمرائها تسعة، أوّلهم " علي بن حمود " الذي تلقب بالنّاصر وآخرهم " محمد الثاني المستعلي". رشّحوا أنفسهم للخلافة في الفتنة فأصبح "علي بن حمود" خليفة بقرطبة وولّى بعده أخوه "القاسم بن حمود المأمون"، ثار عليه ابن أخيه "يحيى بن علي" بـ(مالقة) واستولى على (قرطبة) وتلقّب ب" المعتلي " وكذلك غلب على (الجزيرة الخضراء)، ولكن أمدهُ بقرطبة لم يطل إلى أن قُتل فبُويعَ " إدريس بن علي" وبعده "حسن بن يحي" وكان الصّراع بين الحموديّين أنفسهم بسبب ضعفهم، وكذلك كان بنو عبّاد يطمحون إلى الاستعلاء على مملكتهم حتى تم ذلك سنة 446 هـ ،وبذلك زالت الدولة الحمودية من الجزيرة مثلما زالت من (مالقة).

ب– الطائفة الثانية: يمثلها العنصر البربري الذي أسّس الممالك الآتية:

❖ دولة بني برزال في قرمونة:[2*]

وينتسب بنو برزال إلى قبيلة زناتة وهم من الخوارج الاباضية ،ولعبوا دورًا كبيرا أثناء الخلافة الأمويّة وقاموا بدور الوساطة في حلّ النّزاعات، كالنزاع القائم بين "المعتضد بن عبّاد" و"محمد بن عبد الله بن الأفطس" كما اشتركوا في الغزوات، وظلّت دولتهم قائمة إلى أن استولى عليها (بني ذي النّون) دون قتال ثم آلت فيما بعد إلى (بني عبّاد)[2]، و(قرمونة) مدينة واسعة قديمة البناء وأصلها لاتيني جاء من كلمة كارب موية، ومعناها "صديقين"، وتشتهر بالعسل والفراخ وتقع على مقربة من جنوبي الوادي الكبير في شمال شرقي (اشبيلية) على رأس جبل حصين.[1]

[1*] تأسست سنة (407 هـ –449 هـ)، بنو حمود ذو أصول عربية ، استخدموا البربر و السودان في عملية تكوين الدولة ، فهي عربية السلطة والتوجيه بربرية المنشأ، وبنو حمود من الأدارسة الذين أسسوا الدولة بالمغرب، فانصهر فيها البربر، وعندما فتحت الأندلس 92 هـ (711 م) هاجر العديد منهم إليها، فكانت القيادات ذات أصول عربية بينما آليات البناء و مؤسساته كانت بربرية ، ينظر: أبو عبد الله التنسي: تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدر والعقيان، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د.ط، 1984، ص55، 56.

[2*] تأسست سنة (404 هـ –459 هـ)، بولعراس خميسي: مرجع سابق ،ص 35، نقلا عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح ليفي بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت، ط 2.،ج 3، 1980، ص 267، 268، محمد عبد الله عنان :الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1988، ص 71 .

[2]- بولعراس خميسي: مرجع سابق، ص35.

[1] – محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص71

❖ دولة بني يفرن في رندة:[1*]

هم بطن من بطون زناتة ينتمون إلى يفرن بن يصلين بن مسترا بن زاكيف ورسيك بن أديت بن جانا، ويفرن في لغة البربر تعني "القار"، وقد اختلف النسّابة فيهم، دخلوا الأندلس واستقرّوا بتاكرونة ، واشتهرت في عهد أميرها "أبو نو الهلال" ،وخدم بنو يفرن في الجيش والدّولة، و(رندة) مدينة قديمة تشتهر بالعيون والأنهار تقع غربي (مالقة) متوسطة الحجم.[2]

❖ بنو دمر بمورور :[2*]

وهم بطن من بطون زناتة من ولد ورسيك بن أديدت بن جانا وشعوبهم كثيرة، كانت مواطنهم بإفريقيّة في نواحي طرابلس وجبالها ، وهم بطون كثيرة منهم (بنو ورغمة)، (بنو ورنيد)، (بنو ورتاتين)، (بنو غزرول)،(بنو تافورت) ، وهم خوارج إباضية، وفد جدُّهم تازيري إلى الأندلس أيّام المنصور ووزّع عليهم المستعين أعمال مورور في عهد نوح بن أبي يزيد الدمري، ومورور مدينة متّصلة بأحواز قرمونة وشذونة كانت من المدن التي تؤخذ منها الجباية

❖ إمارة بني خزروت في أركش:[3*]

ينتسبون إلى قبيلة يرنيان المتفرّعة من زناتة نسبة إلى خزرون بن ملفول من أمراء معزاوة وأعيان بني خزر وهم إخوة مغراوة وبني يغرن، والكلّ من ولد بصيليّين وينتسبون جميعا إلى جانا وموطنهم ملوية بالمغرب الأقصى، انخرطوا في الجيش الأموي عند دخولهم الأندلس كما استعان بهم المنصورين أبي عامر في دولته، وأركش مدينة قديمة تقع على وادي لكّه، اشتهرت بالزيتون الكثير.[1]

❖ مملكة بني زيري الصنهاجيون في غرناطة:[1*]

[1*] تأسست سنة (406 هـ –457 هـ) ، عبد الله عنان :المرجع نفسه، ص 271 ، 272.

[2] – عبد الله عنان: المرجع نفسه، ص 271، 272 .

[2*] تأسست سنة (403 هـ –458 هـ)، بولعراس خميسي: المرجع السابق، ص 35، 36 .

[3*] تأسست سنة (402 هـ –461 هـ)، بولعراس خميسي، المرجع السابق، ص36. .

[1]– بولعراس خميسي: المرجع السابق، ص36 .

[1*] تأسست سنة (403 هـ –483 هـ)، إحسان عباس، المرجع السابق، ص12 .

نسبة إلى زيري بن عطيّة بن عبد الرحمن بن خزر ،نظّم هذه الإمارة حبوس بن ماكس ، وكوّن لها جيشا، وعقد بينه وبين الأمراء جيرانه روابط المودّة، وحاول شيئا من التوسّع فاستولى على (قبّرة) و (جيان) ، وخلفه ابنه " باديس " فكانت بينه وبين " زهير العامري " صاحب (المريّة) حرب قُتِل فيها "زهير" وكاتبه " ابن عبّاس " ثم مدّ يده إلى ما في يد (بني حمّود)، وكانوا قد ضعفوا فاستولى على (مالقة) ،وهنا اصطدم بابن عباد في نزاع من أجل الفوز بتلك المدينة، فكان النّصر له على " عبّاد " وقد طال حلم " باديس" وألقى شؤون الدّولة إلى وزيره اليهودي " ابن النّغريلة "، وإلى نفوذ النّساء في القصر حتى ساءت الحال، وثار أهل غرناطة باليهود فقتلوا منهم، ولما توفي باديس خلفه حفيده "عبد الله بن بلقين" صاحب المذكّرات، وتجدّدت المنافسة بينه وبين " ابن عبّاد " إلى إن سقطت (طليطلة) في يد " ألفونسو" السّادس ملك (قشالة) واتّفق أمراء الأندلس على الاستعانة بالمرابطين وكان المرابطون هم الذين أزالوا " عبد الله " عن ملكه. [2]

❖ بنو الأفطس في بطليوس:[*2]

ينسبون إلى " عبد الله بن محمد بن مسلمة " الملقّب بـ "ابن الأفطس" من بربر مكناسة الذين استقرّوا بالأندلس فتأقلموا مع أهلها، وبعد وفاة "سابور" استولى "ابن الأفطس" علىَ السّلطة وبدأ يمارس نفوذه كملك.[3]

كانت مملكة (بني الأفطس) واسعة، اشتبك.... من جهة مع (بني عبّاد) في معارك متعدّدة ومع (بني ذي النّون) من جهة أخرى ثمّ خلفه ابنه " محمّد بن الأفطس "الملقّب" بالمظَفَّر"، وهم من أعلم أمراء الطّوائف وآدبهم والّذي وقف ضد "فرناندو" «فرديناند الأوّل» ملك (قشْتالة)، ثم خَلَفَه ابْنه "المتوكِّل" سنة 460 هـ، ويُؤْثَر له أنّه انْتَدب"أبا الوليد الباجي" كبير فقهاء الأندلس في زمنه ليدعوا أمراء الطّوائف إلى توحيد كلمتهم ضدّ

---

[2]- إحسان عباس، المرجع السابق، ص12.

[*2] تأسست سنة (412 هـ 488هـ) – بولعراس خميسي، المرجع السابق، ص37. نقلا عن ابن عذارى المراكشي،:المصدر السابق، ج3، ص236. ، ص236.

[3] – بولعراس خميسي، المرجع السابق، ص37.

نصارى الشّمال غير أن دعوته بسبب أطماعهم ذهبت أدراج الرّياح، ومن يد "المتوكل" أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل (أشبونة).[1]

❖ بنو ذي النّون في طليطلة:[*]

بنو ذي النّون من قبيلة (هُوَارَة) البرْبَرِيّة البَرنسيّة وبطونها كثيرة واشتُقّ اسم بنو ذي النّون من اسم جدّهم "زنّون" الّذي حُرِّف إلى ذي النّون ومؤسِّسها هو "إسْماعيل بن ذي النّون"[2] و(طُلَيْطِلَة) من الممالك المؤاجهة لحدود الممالك الإسبانية وهي الثّغر الأوْسط، وهي تعريب لاسم (توليودوث-Tholedoth) وهي مدينة قديمة اختلفت المصادر في نسبة بنائها ولها أسرار كثيرة ، كانت عاصمة للمملكة القوطية قبل الفتح الإسلامي.[3]

ومن رجال هذه الدّولة " يحي بن إسماعيل " الملقّب بالمأْمون وقد حكم ثلاثة وثلاثين عامًا ، وكان على نزاعٍ مع " ابن هُود" صاحب (سرْقسْطة) و" ابن عبَّاد " صاحب (إشبيليّة)، وقد استعان المأمون ب " فرناندو" ضدّ بني هود في مقابل دفع جِزْية وإقراره له بالسِّيادة، عندئذٍ ذهب " ابن هود " أيضا يستعين ب" فرناندو"، وغزا " المأمون " (بلنسيّة) واستولى عليها وحاول الإستيلاء على (قرطبة) فلم يمكِّنه "ابن عبّاد" من ذلك ولما تولَّى الأمر حفيدُه "يحي القادر" اضْطَرمت من حوله الفِتَن حتّى فرَّ و لجأ إلى "أَلفونس" يستعين به على إرجاعه إلى مملكته ، فأعانه على ذلك غير أن "ألفونس" استولى على(طليطلة).[4]

❖ بنو رزين بشنتمرية:[*]

ينتسبون إلى (هوّارة)، وبعد الفتنة استقلّوا ب(شنتمرية) ومؤسّس هذه الدولة (الإمارة) هو "هُذَيْل بن عبد الملك"، وكان هذا جبّارًا محبًّا للتّرف وخلَفه ولدُه "أبو مروان عبد الملك" وقد طال أمد حكمه حتّى بلغ ستّين

---

[1]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين ، ص 12 ، شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي – عصر الدول و الإمارات – دار المعارف ، القاهرة ، مصر، د. ط، 1989 ، ص 38.

[*] تأسست سنة (428 هـ-478 هـ) ، بولعراس خميسي: المرجع السابق، ص.37

[2] – بولعراس خميسي: المرجع السابق، ص37 .

[3] – محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص 80 .

[4] – إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين ، ص 12.

[*] تأسست سنة (403 هـ-497 هـ)، بولعراس خميسي، المرجع السابق، ص37. إحسان عباس: المرجع السابق، ص.13

عاما، أدّى الجِزْية لـ "ألفونس" بعد سقوط (طليطلة) وشهدت دولتهم انهيارًا في عهد "ابن رزين يحي بن عبد الملك بن هذيل" الملقّب بـ" حسام الدّولة " الذي كان ضعيف العقل و سِكِّيرًا.[2]

ج- الطائفة الثالثة: موالـــي العامريـــة

حكموا في (شرق الأندلس) أيّ في (المريّة) و(مرسيّة) و(بلنسيّة) و(دانيّة) وما والاها من (جزائر)، فكانت (المريّة) و(مرسيّة) تحت حكم "خيران العامري" (405هـ- 419هـ) ثمّ خلفه فيهما "زهير العامري" (419 هـ - 429هـ) وبعده انشطرت المدينتان إلى دولتين فأصبحت (المريّة) من نصيب (بني صمادح) (433هـ- 484هـ) وأصبحت (مرسيّة) من نصيب (بني طاهر) (429هـ - 471هـ)، أمّا (دانيّة) و(الجزائر) فكانت لـ"مجاهد العامري" وابنه "إقبال الدولة" (400هـ - 487هـ) من بعده إلى أنْ ضمَّها بنو هود إلى مُلكهم وسقطت في يد المرابطين، وشهدت (بلنسيّة) عددًا من الأمراء توالوا عليها إلى أنْ ثار فيها القاضي "ابن جحّاف" ومن يده أخذها السّيد "القنبيطور" 487 هـ ومنه استولى عليها المرابطون.[3]

لقد شهِدت هذه الممالك صراعا مستمرّا، فكان الاضطراب هو السِّمة البارزة والمميِّزة لهذا العصر الذي لا تكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة، فكان يحارب بعضهم بعضا، ويزيل القويُّ منهم ملك الضعيف، كما أزال العبَّاديّون مُلك بني جهور، والنُّونيون مُلك العامريّة، وكثيرا ماكانوا يستنجدون بالإسبان في صراعاتهم وحروبهم مع بعضهم البعض مقابل التنازل عن الحصون والأراضي والمدن الإسلامية.

وكان هذا التمزّق يقابله في الطرف الآخر تنامي القوة النصرانية المهدِّدة للوجود الإسلامي في (الأندلس) والذي يَكِنُّ كيدًا وحقدًا دفينًا للمسلمين وتسعى إلى إنهاء هذا الوجود الإسلامي بأرض الأندلس.

ويصف لنا " ابن الخطيب" هذا الوضع المتردّي الذي آلت إليه الأندلس في هذا العصر بقوله " ذهب أهل الأندلس من الإنشقاق والإنشعاب والإفتراق إلى حيث لم يذهب كثيرٌ من أهل الأقطار مع امتيازها بالمِحْمَلِ القريب والحِظَة المجاورة لعُبَّاد الصّليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، و لا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية

---

[2] - بولعراس خميسي، المرجع السابق، ص37. إحسان عباس: المرجع السابق، ص.13

[3]- إحسان عباس : المرجع السابق ، ص .11

نسب، ولا في شروط الإمامة مُكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجَبُوا العِمالات والأمصار، وجنّدوا الجنود، وقدَّموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبْتُ عنهم الكِتاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودُوِّنت بأسمائهم الدّواوين وشهدت بوجوب حقّهم الشّهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسّلت إليهم الفضلاء... كما قال الشاعر:[1]

مِمَّا يُزْهِدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَـضِدٍ فِيهَا وَ وَمُعْتَمِـدِ

أَلْقَا بُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرَ مَوْضِعِهَا كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفاخاً صُورَةَ الأَسَدِ

كانت هذه الصّراعات وتربّص العدوّ الخارجي سببًا في سقوط ممالك الطّوائف، والتي خلّف سقوطها مآسي ونكبات زعزعت الاستقرار الإسلامي في الأندلس وفجَعت أهلها ما أدّى إلى غزارة الإنتاج الأدبي الذي يعكس صورة العصر وبالأخّص شعر الحروب والفِتَن الذي عكس الحالة السّياسيّة والاجتماعيّة التي كان عليها القرن الخامس الهجري.

[1]- لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ اسبانيا الاسلامية، ت ح وتعليق ليفي بروفنسال، بيروت، لبنان، ط 2، 1956، ص 152.

الفصل الأول

الأغراض الشعرية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف

المبحث الأول: الرثاء

المبحث الثاني: الاستصراخ

المبحث الثالث: الاستعطاف

المبحث الرابع: أغراض أخرى (المدح، الهجاء، الفخر)

الفصل الأول: الأغراض الشعرية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف

شهدت الأندلس تصدّعا واضحًا في القرن الخامس الهجري، فقد شهِدت أحداثا جسامًا، حيث أخذت المدن الأندلسيّة تسقط بشكل مُفجع، المدينة تلو الأخرى، وتزاحمت النّكبات والأحداث الجِسام على المدن الأندلسيّة وتعاظمت تلك الفواجع والأحداث والفتن التي استطاعت أن تُحيل جِنان الأندلس إلى أطلال وخراب لتُشكِّل مُناخًا مناسبًا لبروز أغراض شعرية متنوعة وإمدادِها بمختلف الانفعالات القويّة ، فقد واكب الأدب بصفة عامّة والشّعر بصفة خاصّة جميع الأحداث التي عصفت بالمدن الأندلسيّة فرُثِيَتْ المدن والممالك الزّائلة، وأرخوا الاستنجاد والاستصراخ، واستعطفوا ومدحوا، وهجوا وافتخروا... وكلّها أغراض شعرية سنتطرّق إليها ضمن هذا الفصل.

المبحث الأول: الرّثاء

الرّثاء هو التّأبين، وإذا كان المدح هو الثّناء على الإنسان في حياته فإنّ الرّثاء أو التّأبين هو الرّثاء عليه بعد موته، وهو من الأغراض الشعرية التقليدية في أدبنا العربي، ويقال للتّعبير عن الفجيعة و وفاءً للميت وتعديدًا لمآثره، والشّاعر قد يقضي بقوله حقوقًا سلفت، و يُظهر صفات المرثيّ بتعبيرات مبلّلة بالدّموع.[1]

ولكنّ الرّثاء في الأندلس ظهر بطابع جديد مختلف عن الرّثاء التّقليدي من حيث المضمون و خاصّة في بداية القرن الخامس الهجري، وهو رثاء المدن الضّائعة. وقد عبّر الشّعراء عن سقوط مدنهم وضياعها سواءً بسبب تفرّق المسلمين وضياع كلمتهم، أو بسبب سيطرة البربر والنّصارى وانتشار الحروب و الفِتن.

أ- رثاء المدن والممالك الزائلة:

إنّ مصاب المدن، وما قد يُلمّ بها من كوارث ونكبات يُعدّ فاجعة تُذكِي عواطف الحسرة والحزن واللّوعة في نفوس أهلها.

---

[1]- عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 2 ، 1976 ، ص 194 . 1

وقد استأثر عصر ملوك الطّوائف منذ بدايته التي قامت على أنقاض الدولة الأمويّة بالعديد من قصائد رثاء المدن، وذلك إثر الفتنة التي خلّفت في نفوس الشعراء الحسرة و الألم، فقد أحدثت دمارًا و خرابًا في العديد من المدن، وقد تركت هذه الأحداث أعظم الأثر في نفوس أهل الأندلس لما لَحِق مدنَها من تدمير و تخريب أتى على معالم منها، فهبّ الشعراء يبكون مدنهم و يندبون مصابهم العظيم فيها.

ومن بين الشّعراء الذين وقفوا على الأطلال، وعايش تلك اللحظات متعجّبًا لفعل الزمن بمدينته وسكّانها نجد "ابن حزم" في رثاء مدينة (قرطبة) معبرًا عن هوْل الفاجعة وعِظم المصيبة التي ألمت بقرطبة مستمدًّا ذلك من ماضٍ قضاه فيها وذكريات لا تُنسى له بين ربوعها ، فتُردِّد في أعماقه قصيدة يرثي بها مدينته وأهله إذْ يقول:[1]

سَـــلامٌ عَلَى دَارٍ رَحَلْنَا وَغُـــودِرَتْ خَلَاءٌ مِنَ الْأَهْلِتينَ مُوحِشَةً قَفْـرًا

تَرَاهَا كَـــأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ بَلْقَعًـا وَلَا عَمـرَتْ مِنْ أَهْلِهَـــا قَبْلَنَا دَهْرًا

فَيـــا دَارُ لَمْ يَقْفِـــرْكِ مِنَّـــا اخْتِيَارُنَـا وَلَوْ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ كُنْتِ لَنَـــــا قَبْـرًا

وَلَكِـنَّ أَقْـــدَارًا مِـــنَ اللهِ أَنْفَـــذَتْ تُدَمِّرُنَا طَوْعًـا لِمَا حَلَّ أَوْ قَهْـــرًا

فَصَبْرًا لِسَطْوِ الدَّهْرِ فِيهِمْ وَ حُكْمِهِ وَ إِنْ كَانَ طَعْمُ الصَّبْرِ مُسْتَثْقلًا مُرًّا

وفي هذه القصيدة يقف "ابن حزم" على بقايا الدّيار التي أضحت موحشة مقفرة من أهلها، بعد أن خيّم شبحُ الموت على المدينة وأرْداها خرابا. ولعلَّ هذه اللّحظة التي يقف فيها "ابن حزم" بين حنايا المدينة المقفرة تمثل لحظة مواجهة عنيفة وقاسية بين الشّاعر وما يربطه بهذه المدينة من ذكريات وبين المدينة في وضعها الحالي. فنجده قد استعان بالصّبر على حكم الدّهر وبما في جعبته من ذكريات لما انقضى من عهد المدينة وأهلها.

ومن بين الشّعراء الذين أطالوا وأجادوا في موضوع رثاء المدن "ابن شهيد" الذي عظم مصابه لما حلَّ بمدينته فقال قصيدته متفجّعا متحسّرا على (قرطبة) عند وقوفه على أطلالها وقد أضحت مقفرة خالية من ساكنيها

[1]– لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ت ح ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1 ، القاهرة، 2004 ، ص 106، 107.

فلا صوت يجيبه إلاّ الفراق. يقول "ابن شهيد":[1]

مَا فِي الطُّلُولِ مِنَ الْأَحِبَّةِ مُخْبِرُ فَمَنِ الَّذِي عَنِ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ؟

لاَ تَسْأَلَنَّ سِوَى الْفِرَاقَ فَإِنَّهُ يُنْبِيكَ عَنْهُمْ أَنْجَدُوا أَمْ أَغْوَرُوا

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ فَتَفَرَّقُوا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَ بَادَ الْأَكْثَرُ

جَرَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ وَ عَلَيْهِمْ فَتَغَيَّرَتْ وَ تَغَيَّرُوا

إنّ مواجهة " ابن شهيد " لمدينة (قرطبة) بعد مرور وقت على ما حلّ بها من نكبة يؤجّج في أعماقه و دواخله مشاعر الحزن و الأسى ، لِمَا يعيده المكان و الوقوف على أطلاله من ذكريات ، فتتمثّل أمام ناظريه صور العهود الماضية للمدينة حيث يحاول نقل صور وأحداث مرتبطة بمدينة (قرطبة)، فيرسم أطلال المدينة بحواسّه، وكيف أن الزّمن كان قاسيًا وجائرا على هذه المدينة المنكوبة وأهلها.

ونجد في رثاء المدن التي دُمِّرت في عصر الفتنة البربريّة يطالعنا "السّميسر الإلبيري" راثيا ضاحية من ضواحي (قرطبة)، وهي (الزّهراء) أو ما يسمى (بزهراء قرطبة).

ولما رأى " السّميسر الإلبيري " (الزّهراء) هاله ما حلّ بها من دمار و خراب فبكاها بحرقة و لوعة ترجمت جميع آهاته و حسراته قائلا:[2]

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا مُعْتَبِرًا أَنْدُبُ أَشْتَاتًا

فَقُلْتُ: يَا زَهْرَا أَلَا فَارْجِعِي قَالَتْ: وَ هَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا؟!

فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي وَ أَبْكِي بِهَا هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمَع هَيْهَاتَا

كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَى نَوَادِبُ يَنْدُبْنَ أَمْوَاتًا

في هذه المقطوعة الشّعرية يقف الشّاعر في مواجهة آثار (الزّهراء) باكيًّا نادبا مُعتبرا لهول ما رأى من نكبة وخراب حلّت بالزهراء، ويخاطبها مستجديا: "ألا ارجعي"، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على حجم الحنين

[1]- ديوان ابن شهيد: أبو عامر أحمد بن عبد الله، تحقيق يعقوب زكي، ط1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص109 ص.110

[2]- المقري أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ت ح ، إحسان عباس ، ج 1 ، ط 1 ، دار صادر ، بيروت ، 1988 ، ص .527

والفقد ومحاولة استعادة ما كان من ماضي (الزّهراء)، ليكتفي بعد ذلك بالبكاء والنّحيب والرّثاء والإحساس بالعجز أمام الواقع المؤلم الذي آلت إليه هذه المدينة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ رثاء المدن نعني به المدن التي سقطت على يد النّصارى، أما رثاء المماليك نعني به أفول شمس دول الطّوائف عند دخول المرابطين.

وبالإضافة إلى مدينة (قرطبة) نجد مرثيات في مدن أندلسية أخرى فقد عبّر الشّعراء عن مدى تأثّرهم، فلم تسقط مدينة إلّا وبكوها ورثوها وتفجّعوا عليها تفجّعا حارًّا، ومن بين هذه المدن التي حَظيت بالرّثاء نجد مدينة (بربشتر) التي تعتبر إحدى المدن الأندلسية التي كانت تعدّ ملجأً للثّائرين على بني أميّة، وكانت مأساة (بربشتر) نتيجة حتميَّة لتفرّق دوّل الطّوائف وانشغال حكّامها بالتّنافس على السّيادة، فمأساة (بربشتر) كانت أول نكبة حدثت في الأندلس سنة 456هـ، وقد تناول الأدباء مأساة (بربشتر) وأظهروا نكبتها، أما على صعيد الشّعر فيأتي صوت الفقيه "ابن العسّال" مدويًّا في الآفاق مبيّنا عمق المأساة وحجم الكارثة التي حلّت بـ (بربشتر) ومن شعره قائلا:[1]

ولقَدْ رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْهُـــمٍ لَمْ تُخْطِ لَكِنْ شَأْنَهَا الْإِصْمَاءُ

هَتَكُوا بِخَيْلِهِـــم قُصُورَ حَرِيمِهَـا لَمْ يَبْقَ لَا جَبَلٌ وَ لاَ بَطْحَـاءُ

جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا فِي كُـــلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شَعْـــوَاءُ

مَاتَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِرُعْبِهِمْ فَحُمَاتُنَا فِي حَرْبِهِمْ جُبَنَـــاءُ

الشّاعر في أبياته يردّد أصداء قليلة أصابت (بربشتر) وأهلها من دخول العدوّ المدينة، ومن القتل والسّبي وهتك العرض والتخريب وحمل الأسرى والسَّبايا. وقد علّل الشّاعر ما أصاب المسلمين في هذه الحادثة بجبن المسلمين قادة وجنودا ورجالا.

[1]– محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص163.

كما يقول في أحد أبياته أنّ ذنوب المسلمين التي تحجبهم عن طرق الخير والاستعداد للعدوّ المتربّص ورياء مدّعي الصّلاح من أشباه العلماء والفقهاء الذين لا يؤدّون واجب الدّعوة ولا يخرجون من القول إلى العمل، هي التي أدّت إلى سقوط (بربشتر) حيث يقول:[1]

لَوْلَا ذُنُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَ أَنَّهُمْ رَكِبُوا الْكَبَائِرَ مَا لَهُنَّ خَفَاءُ

مَا كَانَ يُنْصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسٌ أَبَدًا عَلَيْهِمْ فَالذُّنُوبُ الدَّاءُ

فَشِرَارُهاَ لاَ يَخْتَفُونَ بِشَرِّهِمْ وَصَلَاحُ مُنْتَحِلِي الصَّلَاحِ رِيَاءُ

وبعدها سقطت مدينة (طليطلة)، و ما يتبعها في يد "ألفونسو" ملك (قشتالة)، وكان ملوك الطّوائف ينافس بعضهم بعضا و يحارب بعضهم بعضا، وكثير منهم كان ينظر إلى ما بين يديّ الآخر عسى أن يقتنصها منه. وضاعت (طليطلة) كما ضاعت غيرها من المدن الأندلسيّة، وقد نظم شاعر أندلسيّ نسيَ التاريخ اسمه أو أغْفَلَ هو اسمه من نصوص القصيدة حين أذاعها في الناس، رثى فيها المدينة ونعَى على الحكّام تقصيرهم في الدّفاع عنها، وحرّض على استردادها ومطلع القصيدة:

لِثُكلِك كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ سُرُورًا بَعْدَمَا سُبِيَتْ ثُغُورُ؟

يقول فيها:[2]

لَقَدْ خَضَعَتْ رِقَابٌ كُنَّ غلبًا وَزَالَ عُتُوُّهَا وَمَضَى النُّفُورُ

وَهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلّ وَسَامِحٌ فِي الْحَرِيمِ فَتًى غَيُورُ

طُلَيْطِلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرُ مِنْهَا حِمَاهَا، إِنْ ذَا نَبَأ كَبِيرُ

كَفَى حُزْناً بِأَنَّ النَّاسَ قَالُوا إِلَى أَيْنَ التَّحَوُّلُ وَالْمَسِيرُ؟

أَنَتْرُكُ دُورَنَا وَنَفِرُّ عَنْهَا وَ لَيْسَ لَنَا وَرَاءَ الْبَحْرِ دُورًا؟!

مَضَى الْإِسْلَامُ فَما بِكِ نَاماً عَلَيْهِ فَمَا يَنْفِي الْجَوَى الدَّمْعُ الْغَزِيرُ

---

[1]– المرجع السابق، ص 164.

[2]– المرجع نفسه ، ص 165 .

وَنُـحْ وَ انْدُبْ رِفَاقاً فِي فَـلَاةٍ حَيَارَى لَا تَحُـطُّ وَ لاَ تَسِيـرُ

وهي أشعار فيها وصف للحال الرّاهنة بكل ما فيها من مآسي ومواجع وفيها اندفاعة العربيّ المسلم وقد اسْتُبيح حماه.

ونجد شاعرا مجهولا آخرا يرثي (طليطلة)، ويعرض ما جاء فيها من تبدّل و تغيّر، حيث انتصر الكفر واستولى على المدينة ذات الحصون العالية، والتي كانت معقل الإسلام و منارته، فخبَا نورها وأُخرج أهلها وحُولت مساجدها إلى كنائس وعُبث فيها وبرموزها، يقول:[1]

طُلَيْطِلَـةٌ أَبَاحَ الْكُفْـرُ مِنْهَـــا حِمَاهَــا إِنْ ذَا نَبَــأ كَبِيـــــرُ

فَلَيْسَ مِثالَهَا إِيـوَانُ كِسْـــرَى وَ لَا مِنْهَـا الْخَوَرْنَقُ وَالسَّـدِيـرُ

وَ أُخْرِجَ مِنْهَـا أَهْلُهَـا جَمِيعًـــا فَصَارُوا حَيْثُ شَاءَ بِهِمْ مَصِيرُ

مَساجِدُهَـا كَنَائِسُ، أَيُّ قَلْـبٍ عَلَى هَذَا يَقَـــرُّ وَ لَا يَطِيـرُ؟

فَيَـا أَسَفَـاهُ، يَا أَسَفَـاهُ حُزْنًـــا يُكَـرِّرُ مَا تَكَـــرَّرَتِ الدُّهُـورُ

إنّ مصاب (طليطلة) ترك أثرا بالغا في نفوس أهل الأندلس وبالأخص شعراءها لعلاقتهم بالأسر الحاكمة، فتدافعت عواطفهم أمام هذا الجلل وتدفقت عبراتهم في قصائدهم التي ترثي مصابهم العظيم.

تتعاقب المصائب والرّزايا على الأندلس في عصر ملوك الطوائف ويتوالى سقوط المدن والممالك فلم تكن بذلك قرطبة وفاجعة (بربشتر) وكارثة (طليطلة) هي المدن الوحيدة التي طالها العدوان، وبالتّالي فقد طال العدوان بلنسيّة التي سقطت في يد النّصارى.

وعليه لم تكن (بلنسية) من المدن الأولى التي سقطت في أيدي النصارى ك"بربشتر" ولكنّها كانت من المدن التي كان سقوطها مؤلما وقاسيا على أهلها، بسبب الحصار الذي فرض عليها لمدة عشرين شهرا، فمات

[1]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 170 .

الكثير منهم جوعا، كما دفع الحصار ببعضهم إلى مغادرة المدينة والهروب من جحيمها. ومن الشّعراء الذين بكوا هذه المدينة نجد " ابن خفاجة " إذ يقول :[1]

عَاثَتْ بِسَاحَتِكَ الْعِدَا يَا دَارُ وَ مَحَا مَحَاسِنَكِ الْبَلَى وَ النَّارُ

فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِكِ نَاظِرٌ طَالَ اعْتِبَارٌ فِيكِ وَ اسْتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَتِ الْخُطُوبُ بِأَهْلِهَا وَ تَمَخَّضَتْ بِخَرَابِهَا الْأَقْدَارُ

كَتَبَتْ يَدُ الْحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا لَا أَنْتِ أَنْتِ وَ لَا الدِّيَارُ دِيَارُ

لقد جاءت هذه المقطوعة الشعرية في وصف حال مدينة (بلنسية) وما آلت إليه من دمار وخراب بعد إحراقها على يد النصارى.

ونذكر أن الشاعر نزح عن (بلنسية) والبلدان التّابعة لها، مع جملة من الناس الذين نزحوا عنها فِرارا بأنفسهم من الموت.

وهذا "عبد الله بن خلصة البلنسي" يقول:[2]

وَرَوْضَةً زُرْتُهَا لِلْأُنْسِ مُبْتَغِيًا فَأَوْحَشَتْنِي لِذِكْرَى سَادَةٍ هَلَكُوا

تَغَيَّرَتْ بَعْدَهُمْ حُزْنًا، وَ حقَّ لَهَا مَكَان نُوارِهَا أَنْ يَنْبُتَ الْحَسَكُ*

لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ قَالَتْ لِفَقْدِهِمْ بَانَ الْخَلِيطُ وَ لَمْ يَأووا لِمَنْ تَرَكُوا

وفي هذه المقطوعة ندبٌ ورثاءٌ لأهل المكان، "فابن خلصة" ينطق في هذه المقطوعة بلسان المكان معبّرا عن حزن لا ينقطع وحنين موجّه من المكان إلى أهله الذين ارتحلوا عنه وتشتّتوا بعد الفاجعة.

و"لأبي المطرف بن عميرة" قصيدة يرثي فيها (بلنسية) بعد سقوطها، ويذكر أيضا جزيرة (شقر)

وهي موطنه، ولنسمعه يقول واصفا حنينه إلى (شقر) وأبياته تَشِفُّ عن أسى عميق وشوق قائلاً:[1]

---

[1]- المقري أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ج4، ص 400.

[2]- إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين ، ص 186 .

* الحسك : نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم ، واحدته الحسكة.

يَحِنُّ وَ مَا يُجْدِي عَلَيْهِ حَنِينُـــهُ إِلَى أَربـــع مَعْرُوفـها مُتَنَـكِّـرُ

وَيَنْدُبُ عَهْدًا بِالمشقَّـرِ فَاللَّـوَى وَأَيْنَ اللَّوَى مِنْهُ وَ أَيْنَ المشقّـر؟

تَغَيَّرَ ذَاكَ الْعَهْـدُ بَـعْدِي وَأَهْلُهُ وَمَنْ ذَا عَلَى الْأَيَّامِ لَا يَتَغَيَّـرُ؟

وَأَقْفَر رَسْمُ الـدَّارِ إِلَّا بَقِيَّـــةً نُسَائِلُهَـا عَنْ مِثْلِ حَالِي تُخْبِـرُ

فَلَمْ تَبْـقَ إِلَّا زَفْرَةً إِثْـرَ زَفْـــرَةٍ ضُلُوعِي لَـهَـا تَنْقَدُّ أَوْ تَتَفَـطَّرُ

وقال " عبد الكريم القيسي "عند ضياع مدينة (جبل الفتح):[2]

وَقَائِلَـــةٍ: مَالِـــي أَرَاكَ مُقَطِّـبًـــا كَأَنَّكَ لِلتَّقْطِيبِ هُدِّدْتَ بِالذَّبْـحِ؟

وَعَهْـدِي وَلَا أَخْفَى صِفَـاتٌ عَرَفْتُهَـــا تسرُّ بِمَا تُبْدِي مِنَ الْبِشْرِ وَ السَّمـحِ

فَقُلْتُ: دَعِينِي! الْحُزْنُ فُرِضَ عَلَى الْوَرَى أَمَا قَدْ حَوَى أَعْدَاؤُنَا جَبَلَ الْفَتْـحِ؟

حَـرَامٌ عَلَيْـنَا الْبِشْرُ السَّمْحُ بَعْـــدَهُ وَفِي الْقَلْبِ مِنْ آلَامِهِ أَعْظَمُ الْجُـرْحِ!

ومن القصائد التي بكى فيها "ابن اللبانة" دولته التي ذهبت كأنها حلم جميل، نجد تائيته التي رثى فيها مدينته (أغمات)، نختار هذه الأبيات التي ترجمت إحساسه الشّديد بالحزن:[3]

لكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِيقَـاتٌ وَلِلْمُنَـــى مِـنْ مَتَائِيهِـــنَّ غَايَـــات

انْفضْ يَدَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا وَسَاكِنِها فَالْأَرْضُ قَدْ أَقْفَرَتْ وَ النَّاسُ قَدْ مَاتُوا

وَقُلْ لِعَالَمِهَا السُّفْلِيِّ قَدْ كَتَمَـتْ سَرِيـرَةَ الْعَالَـمِ الْعُلْـــوِيِّ أَغْمَـــاتُ

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشعراء رثوا مُدنهم كما رثوا ممالكهم الزّائلة وملكهم أيضا، و"ابن اللبانة" كما رثى مدينته رثى مملكته. وليست هذه القصيدة الأولى والأخيرة التي بكى فيها "ابن اللبانة" وليّ نعمته ومملكته التي

---

[1] – محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 176.

[2]– المرجع نفسه، ص 176.

[3]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 24 ، 25 .

ذهبت كأنّها حلم جميل طاف بخياله في ليل سُرمدي ، بل هناك قصائد و مرثيات كثيرة أشهرها تائيته التي حظيت باهتمام الكثيرين و التي يقول فيها أيضا راثيا بني عبّاد:[1]

لَهْفِي عَلَـــى آلِ عَبَّادٍ فَإِنَّهُـمُ أَهِلَّةٌ مَا لَهَا فِي الْأُفُـــقِ هَـــالَاتُ

تَمَسَّكَتْ بِعُرَى اللَّذَّاتِ ذَاتُهُـمْ يَا بِئْسَ مَا جَنَتِ اللَّذَّاتُ وَاللَّذَّاتُ

رَاحَ الْحَيَا وَ الْفِدَا مِنْهُمْ بِمَنْزِلَـةٍ كَانَتْ لَنَا بِكْـرٌ فِيهَا وَرَاحَـــاتُ

وهذا "ابن حمديس" هو الآخر يرثي مملكة (بني عباد)، كيف لا يرثيها وهو الذي عاش مأساة (صقليّة) ورحل عن بلاده حاملا روحا مثقلة وقلبا لوّعته الغربة وبعد أن وطأت قدماه بلاط "المعتمد" وحصوله على منزلة مرموقة، تناسى بها أحزانه بعض الشّيء فإذا به يغرق في صدمة جديدة وسقوط مملكة بني عبّاد، حيث يقول راثياً:[2]

وَقَدْ لَبِسُوا الْغُدْرَانَ وَ هِيَ تَمَوَّجَتْ دُرُوعًا وَسَلُوا الْمُرْهِقاتِ سَوَاقِيَـــا

مَضَيْتُ حَمِيدًا كَالْـغَمَامَةِ أَقْشَعَتْ وَقَدْ أُلْبِسَتْ وَشْيَ الرَّبِيعِ الْمغَانِيَا

ومن الشّعراء الذين بكوا " المعتمد " ومملكته بدموع ساخنة، الشّاعر " ابن عبد الصمد":[3]

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ تَبَدُّدَ أَدْمُعِي نِيرَانَ حُزْنٍ أُضْرِمَتْ بِفُـــــؤَادِي

فَـــــإِذَا بِدَمْعِي كُلَّمَـا أَجْـرَيْتُـــهُ زَادَتْ عَلَيَّ حَـرَارَةُ الْأَكْبَـــــادِ

فَالْعَيْنُ فِي التِّسْكَابِ وَالتُّهْتَـــــانِ وَالْأَحْشَاءُ فِي الْإِحْرَاقِ وَ الْإِيقَادِ

فهو في هذه الأبيات يعبر عن مدى ألمه وحزنه لفقد المعتمد بن عبّاد، فيبكيه بدموع مخلصة كأنّها نيران أُضرمت بقلبه وكبده وأحشائه من شدّة حزنه على الملك المعتمد بن عبَّاد وعلى ملكه الضائع.

---

[1]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 26.

[2]– المرجع نفسه، ص 153.

[3]– المقري أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ج4، ص 156.

ويبدو أن مملكة بني عبّاد (إشبيلية) لم تكن المملكة الوحيدة التي حظيت برثاء الشّعراء، نجد بالمقابل مملكة (بني الأفطس) هي الأخرى نالت نصيبها من الرّثاء في شعر الحروب والفتن، فهذا "ابن عبدون" يخصّها بقصيدة جميلة يقول فيها:[1]

الدَّهْـرُ يفْجِعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَـرِ فَمَا الْبُكَـاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَ الصُّـوَرِ

أَنْهَـاكَ أَنْهَاكَ لَا أَلُوكَ مَوْعِظَـةً عَـنْ نَوْمَـةٍ بَيْن نَـابِ اللَّيْـثِ وَ الظُّفرِ

فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَ إنْ أَبْدَى مُسَالَمَةً وَالْبِيضُ وَالسُّودُ مِثْلُ الْبِيضِ وَ السُّمرِ

يستهل " ابن عبدون " قصيدته بالحديث عن الدّهر الذي لا يفرّق بين صغير وكبير فكلّ شيء مهما كبُر وعظُم إلى الفناء، فلا تأمن جانب الدّهر لأنّ من يأمن عواقب الدّهر كمن يأمن على حياته بين فكّي أسد.

ويواصل بالقول في أبيات أخرى راثيا (بني الأفطس):[2]

بَنُو الْمُظَفَّـرِ وَ الْأَيَّـامُ مَا بَـــرِحَتْ مَرَاحِلاً وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَـــى سَفَـــرٍ

مَنْ لِلْأَسِـــرَّةِ وَ مَـــنْ لِلْأَعِنَّـــةِ أَوْ مَنْ لِلْأَسِنَّةِ يَهْدِيهَـــا إِلَى الثَّغـــرِ

مَنْ لِلْبَرَـاعَةِ أَوْ مَـــنْ لِلْيَرَاعَـةِ أَوْ مَنْ لِلسَّمَاحَـةِ أَوْ لِلنَّفْـعِ وَالضَّـــرَرِ

مَنْ لِلْعِدَى وَ عَوَالِي الْخَطِّ قَدْ عَقَدَتْ أَطْرَافَ أَلْسُنِهَـــا بِالْعَـــيِّ وَالْحَصَـرِ

وَطَوَّقَتْ بِالْمَنَاطِ السُّورِ بِيضُهَـــمْ فَاعْجَبْ لِذَاكَ وَمَا فِيهَا سِوَى الذِّكْـرِ

أَوْ دَفْـعُ كَارِثَـــــةٍ أَوْ رَدْعُ آزِفَـــةٍ أَوْ قَمْعُ حَادِثَةٍ تَعْيَا عَلَـى الْقَـــدَرِ

فمن خلال هذه الأبيات يحاول الشّاعر تصوير مدى الفراغ الذي خلّفه (بنو المظفّر) ليطرح مجموعة من التساؤلات معبّرا بذلك عن حجم الفاجعة التي ألمت (ببني الأفطس) من جرّاء غياب (بني المظفّر) وسقوطهم. ليذكر الشّاعر بعد ذلك كيف كان بنو الأفطس في قالب رثائي شديد المرارة بقوله:[3]

كَانُوا رَوَاسِيَ أَرْضِ اللهِ، مُنْذُ مَضَـوْا عَنْهَا اسْتَطَارَتْ بِمَنْ فِيهَا وَ لَمْ تَقَـرْ

---

[1]- ابن عبدون عبد المجيد ابن عبد الله: الديوان، ت ح ، سليم الندير ، دار الكتاب ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1989 ، ص 139 ، 140.

[2]- المصدر نفسه، ص148.

[3]- المصدر نفسه، ص143.

كَانُوا مَصَابِيحَهَا فَمُنْذُ خَبَوْا عَثَرَتْ هَـذِهِ الْخَلِيقَةُ يَـــا الله فِـي سَـــدَرِ

كَانُوا شَجَى الدَّهْرِ فَاسْتَهْوَتْهُمْ ضرَعٌ مِنْهُ بِأَحْلَامِ عَـادٍ فِي خُطَى الْحَضَـــرِ

وهاته الأبيات تختصر وتختزل الألم الذي أحّس به الشاعر من خلال ذكر ما كانوا عليه من عزّ وشرف فكانوا الرّواسي و كانوا المصابيح ، لكن بمضيّهم و غيابهم غاب كل شيء إلى زوال.

و من الممالك التي طالها الزّوال في عصر ملوك الطّوائف نجد مملكة بني صمادح (المريّة) التي رثاها " ابن الحاج " في مخمّسته* قائلا:[1]

يَا رُبّ أَرْضٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قُفورِهَا وَأَصْبَحَتْ آهِلَـةً قُبُورُهَـــا

يشْغَلُ عَـــنْ زَائِرِهَـــا مَزُورُهَـــا لَا يَأْمَلُ الْعَوْدَةَ مَنْ يَزُورُهَا

هَيْهَاتَ ذَاكَ الْوَرْدُ مَمْنُوعُ الصَّدْرِ

تَنْتَحِبُ الدُّنْيَا عَلَى ابْنِ معَنٍ كَأَنَّهَا ثُكْلَى أُصِيبَتْ بابْنِ

أَكْـرِمْ مَأْمُولِ ولا أَسْتَثْنِـــــي أثنِي بِنُعْمَـــاهُ وَلَا أَثْنِـــي

وَالرَّوْضُ لَا يُنْكِرُ مَعْرُوفَ الْمَطَرْ

عَهْدِي بِهِ و الْمُلْكُ فِي ذِمَارِهِ وَالنَّصْرُ فِيمَا شَاءَ مِنْ أَنْصَارِهِ

يَطْلَعُ بَدْرٌ التَتمِّ مِـــنْ أَزْرَارِهِ وَتكْمُـنُ الْعِفَّـــةُ فِـي إِزَارِهِ

وَيَحْضُرُ السُّؤْدُدُ أَيَّانَ حَضَرْ

إنّ المتأمّل لهذه المخمّسة يجدها نوعا ما خالية من دوال البكاء والرّثاء، ولولا وجود بعض الإثارات لما شعرنا أنّ هذا المخمّس في رثاء مَلِكٍ ودولته الغابرة، لكن هذا لا ينفي ورود هذه القصيدة في رثاء (المريّة) أو مملكة بني صمادح.

* المخمّس : هو أن يأتي الشاعر بخمسة أقسمة على قافية، ثم بخمسة أخرى على وزنها على قافية أخرى إلا أن يفرغ من القصيدة ، نقلا عن فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص170.

[1]– المقري أحمد محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص 248 ، 249.

وما تجدر الإشارة إليه أن الشّاعر كان يرثي المدينة وسكّانها إذا ما ألمت بها فاجعة ألحقت بها الخراب والدّمار، وامتدّ رثاؤه ليشمل بعض الأشخاص من أمراء وملوك وبالتّالي استحق بعض الأشخاص من الأمراء والملوك أن يكونوا محورا للقصائد في موضوع الرّثاء وخصّهم بقصائدَ تندُبُهم و ترثيهم.

ب- رثاء الأشخاص والملوك:

رثاء الأشخاص من ملوك وأمراء لا يقل أهمية عن رثاء المدن والممالك الزّائلة في الشعر الأندلسي، وقد أبدع فيه الشعراء أيما إبداع، وجادت قريحتهم بقصائد طوال تنبئ عن حسرة وألم شديدين، فجاءت مراثيهم صادقة فكانوا بذلك أقدر الناس على رثاء الممالك الزائلة والأقطار الضائعة وندب الملوك التي تنتزع عروشها وتخلع من سلطانها، ومن بين هؤلاء الشعراء نجد "ابن اللبانة" الذي يعتبر من الشعراء الذين بكوا وتحسّروا على أيام "المعتمد بن عباد"، ويعدّ أول من حمل الحسرة والحزن في قلبه على أبناء عبّاد ومجدهم السّالف، فقال معتصرا زفراته التي عبّرت عن مدى حزنه:[1]

تَبْكِي السَّماءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَـــادٍ عَلَـــى الْبَهَالِيـلِ مِنْ أَبْنَـــاءِ عَبَّـادِ

عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَواعِدُهـــا وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنهُمْ ذَاتَ أَوْتَـــادٍ

عَرِيسَةٌ دخلتها النَّائِبَاتُ عَلَـــى أَسَـــاوِدَ لَهُـــم فيهـــا وَآسَـــادٍ

وكَعْبَةٍ كانَتِ الْآمَـــالُ تَعْمُرُهَـــا فَالْيَوْمَ لَا عاكِفَ فيهـا وَلا بَـــادٍ

أَلْقِ السِّلاَحَ وَ خَلِّ الْمَشْرِفِيّ فَقَدْ أَصْبَحَتْ في لَهَواتِ الضَّيْغَمِ الْعَادِي

وبالإضافة إلى "ابن اللبانة" نجد شاعرا آخر عاش مأساة صقلية فرحل عن بلاده إلى (إشبيلية) ليستقر هناك برهة من الزّمن إلى أن امتدت يد القدر لِتُزلزل كيان مملكة (بني عبّاد) الشاعر " ابن حمديس " يقول راثيا " المعتمد بن عبّاد ":[1]

أَبَادَ حَيَـاتِي الْمَوْتُ إِنْ كُنْتَ سَالِيًا وَ أَنْتَ مُقِيمٌ فِي قُيُودِك عانِيا

---

[1]- ابن اللبانة أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي : شعر ابن اللبانة الداني ، جمع و تحقيق محمد مجيد السعيد ، جامعة البصرة ، ط 1 ، 1977، ص 142 .

[1] - فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 24 ص.25

وَ إنْ لَمْ أُبَارِ الْمُزْنَ قطرًا بِأَدْمُعٍ عَلَيْكَ فَلَا سَقَيتَ مِنْهَا الْغَوَادِيَا

تَعَرَّيْتُ مِنْ قَلْبِي الَّذِي كَانَ ضَاحِكًا فَمَا أَلْبَسُ الْأَجْفَانَ إِلاَّ بَوَاكِيَا

وَ مَا فَرَحِي يَوْمَ الْمَسَرَّةِ طَائِعًا وَ لَا حُزْنِي يَوْمَ الْمَسَاءَةِ عَاصِيَا

ففي هذه الأبيات نستشف العلاقة الحميمة التي كانت تربط الشاعر " ابن حمديس " بالمخاطَب وهو المعتمد، فهو يدعو على نفسه بالموت إن كان هو ناسيا صديقه ووليَّ نعمته الذي يقبع في السجن، معبّرا بذلك عن مدى حبّه و ولائه و وفائه لصاحبه وهو في أسوأ حالاته.

وفي موضع آخر يفتخر و يعتزُّ بصديقه السّجين فيقول:[2]

حُسَامُ كِفَاحٍ بَاتَ فِي السِّجْنِ مُغمَدًا وَأَصْبَحَ مِنَ حَلَى الرِّيَاسَةِ عَارِيًـــا

وَلَيْثُ حُرُوبٍ فِيـــهِ أَعْـدُو بِرِقِّـــه وَقَدْ كَانَ مِقْدَامًا عَلَى اللَّيْثِ عَادِيا

فَيَا جَبلًا هَدَّ الزَّمَـــانُ هِضَابَـــهُ أَمَا كُنْتَ بِالتَّمْكِينِ فِي الْعِزِّ رَاسِيًـا

ونلاحظ أنّ "ابن حمديس" يرثي صديقه وفي نفس الوقت نجد شعره يحمل في طيّاته آثار الألم والحزن على الوطن الضّائع المتمثل في (صقلية) وأفول عرش "المعتمد" الذي كان بالنّسبة له بمثابة القشّة التي أنقذت الغريق فعادت الأحزان إلى مستقرّها في قلبه، فهو يرثي مدينته من خلال رثائه للمعتمد بن عبّاد.

وبالمقابل نجد "ابن عبد الصمد" هو الآخر من الشعراء الذين بكوا "المعتمد" ومملكته بدموع ساخنة، حيث قال:[3]

مِلِكُ الْمُلُوكِ أَسَـامِعٌ فَأُنَـــادي أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّماعِ عَوَادي

لَمَّا خَلَتْ مِنْكَ الْقُصُورُ وَلَمْ تَكُـنْ فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَـــادِ

أَقْبَلْتُ فِي هَذَا الثَّرَى لَكَ خَاضِعاً وَاتَّخَذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْإِنْشَـــادِ

---

[2] – فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 152.

[3] – لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص155.

ويتضّح من هذه الأبيات مدى حزن الشاعر وإحساسه بلوعة الفراق وهو الذي اعتاد أن يزور "المعتمد" في قصره، وها هو يزوره في قبره وشتّان ما بين الزّيارتين، إلّا أنّه رغم ذلك ظلّ وفيًّا ولا شيء يثنيه عن دوام اتّصاله بابن عبّاد حيّا أو ميتا وأنّه سيبقى عزيزا عليه في كلتا الحالتين، لتنزل دموعه حرَّى على فقد صاحبه.

ويقول أيضا:[1]

مَا كَانَ ظَنِّي قَبْلَ صَوْتِكَ أَنْ أَرَى قَيْدًا يَضُمُّ شَوَامِخَ الْأَطْـوَادِ

الْهَضَبَةُ السَّماءُ تَحْتَ ضَرِيحِـــــهِ وَالْبَحْرُ ذُو التَّيَّارِ وَالْإِزْبَـــادِ

عَهْدِي بِمَلِكٍ وَهُوَ طَلْقٌ ضَاحِكٌ مُتَهَلِّلُ الصَّفَحَاتِ لِلْقصّـادِ

وفي هذا تصوير لتبدّل الحال من العزّ والشّموخ إلى السّجن والموت، ويتّخذ من القبر وسيلة لتصوير عظمة " المعتمد " ممثّلا إيّاه بالجبل والبحر وكيف لقبر أن يكون قادرا على ضمّ الكبرياء والشّموخ كقبر " المعتمد " الذي عُرِف أيضا بكرمه، وأنّه لا يردُّ سائلاً ولا يعبُس في وجه طالب حاجة.

وهكذا نلاحظ كيف عبّر الشعراء عن فقدهم لمدنهم وممالكهم في الأندلس وبالضّبط في عصر ملوك الطوائف، الذي شهد الكثير من النّكبات والخطوب والحروب، التي أحدثت خرابا ودمارا في العديد من المدن الأندلسية، وحالت كلّ شيء فيها إلى أطلال خربة، فشكّل الشّعر بذلك وسيلة في يد الشاعر للتّعبير عن ذلك الجوى والحسرة بحديثه عن دياره التي كان يقطنها وسقطت في أيادي الأعداء، فصوّر عظم المصيبة الواقعة، وعدّد مآثرها ومميزاتها، واتّصل هذا الأدب غالبا باستنهاض الهمم والحض والدّعوة إلى الجهاد.

المبحث الثاني: الاستصراخ

شعر الاستصراخ (الاستغاثة) هو أحد فنون الشّعر التي استحدثها شعراء الأندلس، هو شعر يقوم على استنهاض عزائم الملوك خاصة ملوك المغرب العربي وهمم المسلمين في شتى أقطارهم كي يهُبّوا بباعث الأخوّة

[1]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 156.

الإسلامية لنجدة الأندلس ومديد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم من النصارى الذين أجمعهم ضعف الملوك المسلمين بها وتفرُّق كلماتهم وإسرافهم على أنفسهم في اللّهو والمجون وانشغالهم عن أمور الجهاد بمحاربة بعضهم بعضا.

ولقد كثر شعر (الاستغاثة) الاستصراخ في الأدب الأندلسي بل في الشعر العربي كلّه لأنّه نابع من صميم مأساة الأندلس التي أخذت مدنها تتساقط معالمها وتمتحي، ويُنَكَّل بأهلها التي لم يكن لها نظير من قبل في تاريخ الإسلام، فتبدلت حياتهم وأضحى هذا الفردوس مهدّدا بالضّياع كلّه، لذلك اتّسم هذا الشّعر بالعاطفة المشبوبة والمشاعر الصّادقة والّصور الشاجية الباكية والصّرخات التي تستجدي العون حتى إذا لم تجد سميعا راحت تطلبه من الله.[1]

كانت فتنة (قرطبة) بمثابة النذير الأوّل وبعد أن استولى (النّورمانديون) على (بربشتر) وما حلّ بأهلها من دمار وخراب وتقتيل هبّ الفقيه الشّاعر "أبو حفص عمر بن حسين الهوزني" يستصرخ "المعتضد بالله " أقوى ملوك الطّوائف برسالة مطوّلة يدعوه إلى إنقاذ أهلها و رفع الظّلم عنهم و نصرة الإسلام قبل أن يستفحل الدّاء وتكبر المأساة قائلا:[2]

أعَبّاد حَلّ الرّزْءُ وَالقَوْمُ هُجَّع عَلِيّ حالَة مِن مِثْلها يُتَوَقَّع

فَلْق كِتابِيّ مِن فَراغكَ ساعَة وَإن طالَ فَالمَوْصُوف لِلطُول مَوْضِع

إذا لِمَ أَبَّت أَلِدّاء رُبّ دِوائهُ أَصْغَت وَأَهْل لِلكَلام المضَيِّع

فبعد هذا الوصف ، يحاول الشّاعر أن يذكي الحماس في نفس عبّاد ، حين ينتقل في شعره من الاستصراخ والحثّ على الجهاد إلى المدح مستعطفا فيقول:[1]

أعَبّادُ ضَاقَ الّدّرْعُ وَاتَّسَعَ الخَرْقُ وَلَا غَرْبَ إِذَا لَمْ يَكُنْ شَرْقُ

وَدُونَكَ قَوْلاً طالَ وَهُوَ مُقَصّرِ فَلِلَعِين مَعْنَى لا يُعَبِّرهُ النُطْقُ

---

[1]– ينظر : عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 2 ، 1976 ، ص 413 ، 414 ، 415.

[2]– ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ت ح ، إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 1 ، 1979 ، ص 81، ص.89

[1]– المصدر السابق، ص ، 167 .

إِلَيكَ ٱنتَهَت آمالُنـَا ومَا دَهَى بِعَزْمِكِ يدْمَعُ هامَةَ البَاطِلِ الْحَقُّ

فالشّاعر رغم طول رسالته، فهو يرى بأنّ اللّسان يعجز عن وصف وتصوير فظاعة ما رأته عينه. وتجدر الإشارة إلى أنّ شعر الاستصراخ ما كان ليصدر عن روح انهزامية بل أنّه كان سبيلاً قويا لبعث الوعي وإيقاظ الأرواح و حشد الهِمَم و التّنبيه إلى ضرورة الاهتمام لما يحدث ، كما تجدر الإشارة إلى أنّه بقدر ما كان ملوك الأندلس وأمراؤها في غفلة مُنْساقين وراء أهوائهم وملذّاتهم ، بقدر ما كان علماؤها فطنون واعون بالخطر محذّرين منبّهين منه فينابيع الشّعر قد تفجّرت ، حيث نُظِمت القصائد الكثيرة التي ترثي وتندب (طليطلة) بأسلوب مؤثّر وبليغ ولعلّ " ابن العسّال " من الشّعراء الذين كانت صرختهم مدويّة مليئة بالفزع عند سقوط (طليطلة) حيث قال:[2]

يا أَهَلَّ أَنـْدَلُس حَثوْا مَطَيَّكُم فَماً المِقامُ بِـها إلّا مِن الغَلَـطِ

الثَّوْب يَنْسَلُّ مِن أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثَوْبَ الجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الوَسَـط

وَنـَحْنُ بَيـنَ عَدُوِّلا يُفَـارِقُنـــاَ كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ فِي سَفَطِ

فـ " ابن العسّال " في هذه الأبيات لم يكتف باستشعار النّهاية فقط ، بل اعتبرها قد بدأت فعلا ، فهو يرى بأنّ جميع الممالك على وشك الوقوع في أيدي النّصارى إذا استمرّ ملوك الطّوائف على ما هُم عليه من تقاتل وتناحر ضدّ بعضهم البعض.

فالشّعراء طالما ردّدوا هذه المعاني في أشعارهم لاستنهاض الهِمَم و بعث الحماس في نفس الملوك الرّعايا على حدّ سواء ، فهذا الشّاعر المجهول يرثي (طليطلة) بقصيدة طويلة (72بيتا) ضمّنها أبياتا تبعث على استنهاض الهمم وشحذها قال فيها:[1] (2)

خُذوا ثَأْر الدِّيانة وانْصُروهَا فقد حَامَتْ على القَتْلَى النُّسُورُ

ولا تَهِنُوا وسلُّوا كُلّ عَضْبٍ تَهَـابُ مُضَـرِبًا منـــه النُّحُـــورُ

---

[2]- محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 172.

[1]- المرجع السابق، ص 165 .

ومُوتُوا كُلّكُم فالموتُ أولـى بِكُمْ من أن تُجَـــارُوا أو تَجُـــورُوا

ونَرجو أنُ يتيحَ الله نَصْـــرًا عليهِـمْ إنّـــــه نِعْـمَ النَّصِيـــرُ

حيث نجد أنّ الشاعر هنا يدعو إلى الأخذ بثأر الدّيانة ونصرها ذلك أنّ الحرب في عمقها صليبيّة أكثر منها شيء آخر، وبالتّالي ترك الجبن والتّقدم إلى ساحات الوغى للموت من أجل الوطن ونصرة الدّين الإسلامي و رفع رايته بكلّ شجاعة وبسالة وصبر وثبات قائلا:[2]

لا تَجْنَحْ إِلَى سِلْمٍ وَحَارِبْ عَسَى أنْ يُجْبَرَ العَظْمُ الكَسِير

وهذا شاعر آخر يرثي (طليطلة) مستصرخا يتساءل في عجب هل في الأندلس من يقرّ هادئا ، وقد ضاعت (طليطلة)؟ فهُدَّ بضياعها ركن الدّين الحصين حيث يتساءل أليس في المدينة شهمٌ أبيّ يقاوم الاحتلال يحرّرها من العبوديّة ؟ فقد خضع الذين تعوّدوا النّصرة، واستكان من في طبعهم النّهوض والنّفور ، فهان القوم على أنفسهم و تسامحوا في حرماتهم يقول:[3]

أَلَيْس بِها أَبِيّ النَفْس شَـهْمٌ يدَير على الدَوائِر إِذ تـدُور

لقد خَضَعتْ رِقاب كُنَّ غُلْبًا وَزالَ عُتُوّهَا وَمَضَى النُّفُور

وهَانَ على عَزيز القوم ذلٌّ وسَامَحَ في الحَرِيمِ فَتىً غَيُور

ولعلّ أكبر ما حزّ في نفس الشّاعر فقدان المسلمين لروح الجهاد والدّفاع عن الأرض والمال، فقد أضحوا لفرط جُبنهم كالبقر تخور بعد أن كانوا أهل عِزة ونخوة يقول:[1]

نَخُـــرَ إِذا ذَهَبْنَا بِالرّزايـــا وَلِيس بِمُعْجِبٍ بَقَرٌ تَخُورُ

ونَجْبُنُ ليس نزار لَو شَجُعنا وَلَم نجبُنُ لَكانَ لَنـا زَئِيـرُ

---

[2]- المقري أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ص 483 ، 486.

[3]- المصدر نفسه ، ص 483 ، 486.

[1]- المقري نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص.486

فالشّاعر يتعمّد إيراد الصّور التي تهزّ الآذان والأذهان، علّها تُحدث رجّة في النّفوس فتهبّ للاستصراخ والنّهوض للدّفاع عن حمى الوطن، فالشّاعر ممتلئ بالغيض، ويحاول استنهاض الهمم وبعث الحماسة والتغلّب على الجبن والخور الذي أصاب الأمّة في عصر ملوك الطوائف ، ومنه مقاتلة العدوّ ومواجهته بكلّ ما يملكون من قوّة.

المبحث الثالث: الاستعطاف

لا نجد تعريفا واضحا لشعر الاستعطاف لا في المصادر القديمة ، ولا في المراجع الحديثة ، نستطيع القول أنّه ذلك الشعر الذي يبثّه الشاعر إلى شخص ما لاستمالة قلبه واستدرار عطفه آملا بعفوه عنه وتخليصه من ضروب المعاناة والحرمان الذي يعانيه[2]، وقد يدلّ على اجتماع صاحبها على براءته ممّا نسب إليه وليستميل قلب من يستعطفه ويذكّه فيما كان له من ولاء ومحبّة ، وقرنه عبد العزيز عتيق بالاعتذار قال عنه: " ويقال له أحيانا الاعتذار".[3]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستعطاف غرض قديم، ولم يخل أيّ عصر من عصور الأدب العربي من شاعر أو أكثر نظموا الشعر استعطافا أو اعتذارا .

وقد ازداد شعر الاستعطاف في الشّعر الأندلسي في عصر ملوك الطّوائف زيادة ملفتة نظرا لما كان في هذا العصر من توتّر واضطراب وعدم استقرار على الصّعيدين السّياسي والاجتماعي، وبالتّالي زيادة الأشعار الاستعطافيّة التي من شأنها أن تليّن القلب، كما هو الحال بالنّسبة لاستعطاف الحكّام و الأمراء والقادّة ، الذي يمثّل النّصيب الأكبر من الأشعار الاستعطافية في عصر ملوك الطوائف ، فالحاكم هو الذي يأمر بالسّجن أو القتل أو النّفي عن الوطن، والشاعر المعاقب يسترحم ويستعطف أملا في عطف الحاكم وعفوه ، ومن أشهر الشّعراء الذين استعطفوا الحكّام في هذا العصر: " ابن زيدون " الذي تمّ اعتقاله من طرف " أبي حزم بن جهور " حاكم

---

[2]- محمد جاسر جبالي أسعد: الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، إشراف وائل أبو صالح، ماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص.19

[3]- عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، ص 230.

(قرطبة) الذي قرّبه منه وقلّده الوزارة في دولته، وظلّت علاقتهما حسنة إلى أن وقع ل"ابن زيدون" عارض صيّره إلى الاعتقال يقول:[1]

وَمِثْلِـي قد تَهْفُو بِهِ نَشْـوَةُ الصّبَـا وَمِثْلُكَ مَن يَعْفُو وَمَالَكَ مِن مِثْلِ

هِيَ النَّعْل زَلّتْ بِي فَهَلْ أَنَت مُكَذّبٌ لِقَيْل الأَعَادِي إِنَّها زَلَّة الحِسْـلِ

يلمّح "ابن زيدون" في شعره إلى اعتقاله ويبيّن أنّه ارتكب ذنبا غير متعمّد فقام أعداؤه وحسّاده بتهويل أمره وإظهاره بمظهر الذّنب العظيم الذي لا يغتفر، لكن "ابن زيدون" لم يُفصِح عن هذا الذّنب حيث يُصِرّ على براءته.

ما انفكّ ابن زيدون مستعطفا " أبا الحزم بن جهور" ليرقّق قلبه ويليّن جانبه، وهو في قصائده الاستعطافيّة جميعها يحمل على الوشاة والحاسدين ويحاول جاهدا أن يبرّئ نفسه من كلّ التّهم التي رُمِيَ بها قائلا:[2]

كَان الوُشاَة وَقد مُنِيتُ بِإِفْكِهِم أَسباط يَعْقُوب وَكُنْتُ الذّيْبَا

في هذا البيت يشبّه الشّاعر نفسه بالذّئب الذي أُتُّهِمَ زورًا و بُهتاناً بدم يوسف عليه الصّلاة والسّلام.

وتجدر الإشارة أنّ "ابن زيدون" استعطف "أبا الحزم" في قصائد عدّة، ولعلّ قصيدته اللاّميّة من أشهرها والتي أوردها في استعطاف "أبي الحزم":[3]

ألا إِنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلِيكِ واقِـفٌ وُقُوفَ الهُوَى بَيْنَ القَطِيعَـة وَالوَصْـل

فَإِنْ تِمنَ لِي مِنكَ الأَمانِي فَشِيمَـة لَذاكِ الفَعّال القَصْد القَصْد وَالخَلْق الرِسْل

وَإِلّا جَنَيتَ الأُنْس مِن وَحْشَة النَوَى وَهَـوْل السُـرِّيّ بَيَّنَ المِطِيَّة وَالرُحَّل

وَأَيَّنَ جَواب مِنكَ تُرَضَّى بِهِ العـلا إِذا سَـأَلَتنِي بَعْدِ أَلْسِنَـة الحَفـلْ

ففي هذه الأبيات يُعرِبُ الشّاعر عن ثقته بأخلاق أبي الحزم العالية وصفاته وأفعاله الحميدة التي من شأنها أن تكون سببا في حصوله على العفو والصّفح، ويستدرك الشّاعر حدوث ذلك بقوله، وإذا استمرّت القطيعة تعذّر

---

[1]- ابن زيدون : الديوان ، شرح و ت ح كرم البستاني ، دار صابر، بيروت، ط 1، 1975، ص 133.

[2]- المصدر نفسه، ص 133.

[3]- المصدر نفسه، 163.

عليه الحصول على العفو، فسيشدّ رحاله بعد إطلاق سراحه لكن أمله في أن ينظر أبو الحزم إليه بعين الرّضى لازال قائما. ويواصل " ابن زيدون " بقصيدة رائية استعطاف أبي الحزم يقول في مقطع منها:[1]

لا تْلَه عَنِّي فَلَم أَسْأَلَك مُعْسِفًا رَدَّ الصَّبا بَعْدِ إيفاءٍ عَلي الكِبَـــرِ

هَبْنِي جَهِلتُ فَكان العلق سَيِّئَة لا عُذرَ مِنها سِوَى إِنِّي مِن البَشَرِ

إِنَّ السِّيادَة بِالإِغْضَاء لابَسَـــةٌ بَهاءها ، وَبِهاء الحُسْن فِي الخُفَـــرِ

هنا يحاول الشّاعر لفت انتباه "أبي الحزم"بأنّ ما يطلبه ليس بالأمر المستحيل، وأنّه لا يتعسّف في الطّلب، فهو لا يسأله الصِّبا لمن أوفى على المشيب، وإنّما طلبه أمرا سهلا لا يعدو إن يكون لفتة طيّبة من لفتات الأمير بقبول عذره، فهو وإن أخطأ يبقى من البشر، وليس فيهم معصوم عن الخطأ، أو محصّن من الزّلل، وزللُ المحكوم يرافقه صفح الحاكم وحلمه، والتّغاضي عن صغائر الذنوب زينة السّيادة، كما أنّ الحياء زينة الحسن وبهاؤه.

ومن الشّعراء الذين كتبوا قصائد بغرض الاستعطاف نجد أيضا "ابن عمّار" الذي كانت تربطه علاقة بالأمير المعتمد، وبسبب واقعة تاريخية أُعتقل من خلالها " الرّشيد ابن المعتمد "بسبب اتفاق أبرمه" ابن عمّار" مع صاحب برشلونة، وعندما علم المعتمد بالخبر غضب غضبا شديدا من "ابن عمّار"، فحاول " ابن عمّار" استمالة قلب المعتمد حتى يصفح عنه فيقول مستعطفا:[2]

أَهابُكِ لِلحَقّ الَّذِي لَك فِي دَمِي وَأَرْجُوك لِلحُبّ الذِي لَك فِيّ قَلْبِي

وَما جِئتُ شَيْئا فِيهِ بَغْيُ لَطالِـبٍ يُضاف بِهِ رَأْي إِلَى العَجْزِ وَالعَجَبِ

سِوَى أَنَّنِـي أَسْلَمـتَنِي لِمَلَمَّـــةٍ فَلَلْتَ بِها حَدِّي وَكَسَرتَ مِن غَرَبِي

وَما أُغْرَب الأَيّام فِيما قَضَتْ بِهِ تُرِينِي بُعدَي عَنكَ آنَسُ مِـن قُرْبِـي

---

[1]– المصدر السابق ، ص 151.

[2]– ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 407.

فالشّاعر مستعطفا يخبر "المعتمد" بأنّه كلّفه بمهمّة شاقّة أخفق وعجز عنها، ملمّحا في الآن نفسه أنّ الذّنب ليس ذنبه وحده، لكنّه رغم ذلك فهو يتحمّل تبعاته وأنّ الابتعاد عنه أضحى أكثر أنسًا من مواجهته والمثول بين يديه، وأنّ ما حدث بينهما ما هو إلّا نتيجة لفتنة.

ويقول راجيا عفو المعتمد الذي سيكون بردا وسلاما على قلبه المتّقد خوفا ورهبة:[1]

سَأَسْتَمْنِح الرَّحْمَى لَدِيك ضَراعَــة وَأَسْأَلَ سَقَيا مِن تَجاوُزكِ العـَذْب

فَإِنْ نَفَحَتْنِي مِن سَمائكِ حُرْجُفٌ* سَأَهْتِف يا بَرْدَ النَّسِيم عَلِي قَلْبِي

وفعلا نجح "ابن عمّار" في استعطاف "المعتمد بن عبّاد" ولان قلبه وصفح عنه وعادت علاقتهما إلى ما كانت عليه، وبمرور الوقت والسّنوات ساءت وفسدت علاقتهما من جديد رافقه قصائد سَخِر فيها من "ابن عمّار" وقابله ابن عمّار بشعر هجاه فيه فازدادت الهوّة بينهما واتّسع الخرق بين الصّديقين، وبالغ "ابن عمّار" في الإساءة في قصيدته اللاّمية حين سبّ المعتمد زوجته وأولاده سبّا قبيحا، وبذلك كان من المستحيل أن يحدث الصّلح بينهما إلى إن وقع "ابن عمّار" في يد المعتمد وسجنه فأخذ يستعطفه من جديد لأنّ يعفو عنه ويطلق سراحه بعد ما باءت محاولات استعطافه لأولاد المعتمد بالفشل.[2]

سَجَاياكَ إِنْ عَافَيتَ أَنْدَى وَأُسْمَحُ وَعُذْرُكَ إِنْ عَاقَبْتَ أُجْلَى وَأُوْضحُ

وَإِن كَـان بَيْنَ الخَطِّيَّتَيــْنِ مَزِيَّـــة فَأَنتَ إِلَى الأَدْنَى مِن اللّه أَجْنُــح

ويُذكِّر الشّاعر "المعتمد" بالودّ الذي يكنّه له، وبالخدمات الجليلة التي قدّمها له ولدولته، وهما كفيلان بتخفيف وطأة ذنبه، فالإنسان يخطئ ويصيب، وكم مفسد أعقب فساده بصلاح، وخطأه بصواب ثمّ يطلب من المعتمد إقالته من عثرته، وصفحه عن زلّته يقول:[1]

وَلِمَ لاَ، وقدْ أَسْلَفْتُ وُدًّا وَخِدْمَة يَكِرَّانِ فِي لَيْلِ الخَطَايَا فَيُصْبِحُ

---

[1]– بسام الشنتيري، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص407.

* حرجف: الرياح الباردة.

[2]– لسان الدين ابن الخطيب : أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، ص .161

[1]– لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ، ت ح ، محمد عبد الله عنان ، المطبعة الخدوية ، القاهرة 1866 ، ص 98 .

وَهَبْنِي قَد أَعْقَبْتُ أعْمَالَ مُفْسِدٍ أَمَا تُفْسدُ الأَعْمال ثَمَّةَ تَصْلُحُ

أَقِلْنِي بِما بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِن رِضىً لَهُ نَحْوَ رَوْحِ الله بابٌ مُفْتَحُ

لكن استعطاف "ابن عمّار" هذه المرّة، لم يُجدي نفعًا لإدراك " المعتمد " بأنّ " ابن عمّار" مطبوع على الخيانة والغدر، فدخل عليه في سجنه وأرْدَاهُ قتيلا. ومن بين الشّعراء المستعطفون نجد "عبد الملك بن غصن الحجاري " الذي هجا " المأمون بن ذي النّون " ملك (طليطلة)، فلمّا تمكّن منه " المأمون " من التّهم التي رُمِيَ بها إذ يقول:[2]

أَزاحَ الدَهْر حَلْوَ الماءِ عَنِّي عَلى ظَمأ وَأَسْقانِي زُعَاقُهُ

وَبِالمرْجُوِّ إنْ أظْفَرَ بِهِ مِن رِضَى المأْمُون يَحْلَى لِي مَذاقهُ

ولم يعف المأمون عن الشّاعر ولم يطلق سراحه، فكتب الشّاعر قصيدة إلى "ابن هود" حاكم (سرقسطة) رجاه فيها أنْ يستشفع له عند "المأمون"، حيث يقول في قصيدته:[3]

أَيَا رَاكِبَ الوَجْنَاءِ بَلِّغْ تَحِيَّةً أُمِيرَ جُذَامٍ مِن أُسِيرٍ مُقَيَّدِ

وَلَمّا دَهَتْنِي الحَادِثَاتُ وَلَمْ أَجِدْ لها وِزْراً أَقْبَلتُ نَحْوَكِ أَعْتَدِي

فَعَلَّكِ إن تَخْل بِفِكْرِكَ ساعَة لِتَنْقُذنِي مِن طُول هَمٍّ مُجَدّدِ

حَنانَيكِ أَلْفاً بَعْدِ أَلْفٍ فَإِنَّنِي جعَلْتِكَ بَعْدَ اللّه أُعْظَمَ مَقْصَدَيْ

(فرقّ له ابن هود، وتحيّل حتى خلّصه بشفاعته).

ومن الشّعراء المستعطفين عقب الفتنة التي حلّت ببلاد الأندلس في عصر ملوك الطّوائف نجد " ابن اللّبانة "الذي اضطرّ لاستعطاف ملوك الطّوائف مرّتين: الأولى عندما حلّ ببلاط "المتوكّل على الله" ملك (بطليوس) وبالغ في إكرامه، فثارت حفيظة أعداء الشّاعر، وأخذوا يكيدون له كيدا ليفسدوا ما بينه وبين " المتوكّل"، وتمّ لهم ذلك ونجحوا في إشعال نار الفتنة وإيغار صدر مليكه عليه، ففرّ الشّاعر هاربا وأثناء هروبه أرسل إلى " المتوكّل "

---

[2]- محمد جاسر جبالي أسعد: الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، ص 70.

[3]- المرجع السابق ، ص 78.

قصيدة يستعطفه فيها ويعتذر إليه، وقد استهلّ قصيدته تلك بعتاب المتوكّل عتبًا رقيقا مهذّبا، ثمّ تحدّث عن مشاعره وأحاسيسه بسبب تغيّر مليكه عليه، ثمّ عبّر بعد ذلك عن الحبّ الشّديد الذي يكنّه لمليكه، يقول:[1]

نَبَا بِيدِي حُسَامٌ مِن رِضَاكا فَوَافَتْنِي النّوائِبُ عِنْدَ ذاكَـا

تَجَاوَزَ فِيكَ وُدِّي كُلّ حَـــدَّ وَلِكَنّ التَّجاوُزَ مَا أطَّبَاكَـا*

وَلُو جَازَيتَنِي قدْرَ اِعْتِقــادِي لِنَلْتُ بِكَ المِجَرّة والسّماكاَ

أمّا المرّة الثّانية التي استعطف فيها "ابن اللّبانة"، فكانت بعد أن دالت دولة (بني عبّاد)، واتّجه بذلك إلى (ميورقة) وتقرّب من أميرها "ناصر الدّولة مبشّر بن سليمان" وعاش في كَنَفه حينًا من الدّهر، ولكن ما حدث له في (بطليوس) حدث له في (ميورقة) وأخذت الوشايات والدّسائس تطَاله وأخذت نار الفتنة تضطرم نارها وأحسّ بتغيّر الأمير وازوراره عنه وحاول أن يسترضيه بقصيدة أرسلها إليه، عبّر فيها عن حبّه لـ " ناصر الدّولة "، ثمّ حاول أن يبرّأ نفسه ممّا اتّهم به، وقد اخترنا من هذه القصيدة هذا المقطع إذ يقول:[2]

يَمِيناً لَكُمَ هُو أَزْكَى يَمِيـــنٍ لِأَلْتَمِس العُذْر مِنكُم جَمِيـلاَ

سَعوْا لِي عِنْدِكَ فِي عَثْـــرَةٍ وَلا عِلْم لِي فَكَرِهتُ المِقيـلاَ

أَفرَّ بِنَفْسِي وَإِن أَصْبَحتْ ميورقة مِصْرًا وَجَدْواكَ نِيـــلاَ

وفي هذه الأبيات يُقْسِم الشّاعر مُعتذرا أنّه بريء من كلّ ما اتُّهم به، وأنّ الوُشاة جادّون في إذكاء نار الفتنة، لذا فقد آثر الرّحيل ومغادرة (ميورقة) حتى لو أصبحت هي مصر بجمالها وخيراتها، وأصبح كرم الأمير كالنّيل بخيره وعطائه مادام الأشرار يتربّصون به ويترقبونه.

ولم يقتصر شعر الاستعطاف على الشّعراء الذين ذكرناهم بل هناك من الشّعراء من عانى من نار الفتنة في عصر ملوك الطّوائف وكانت سببا في سَجنهم في غَياهِب السّجون ومن بينهم " ابن سيده"، و"ابن أزرق"، "ابن الحدّاد" وغيرهم كثير.

---

[1]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 666.

* ما أطباكا : ما دعاك.

[2]- محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، ص 74.

المبحث الرابع: أغراض أخرى (المدح، الهجاء، الفخر)

1- المدح:

هو تِعداد لجميل المزايا، ووصف للشّمائل الكريمة، وإظهار للتّقدير العظيم الذي يكِنّه الشّاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا[1]

[1]- جبور عبد النور : المعجم الأدبي ، مطبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، 1984 ، ص 245 .

والمدح من الأغراض الشّعرية القديمة التي توارثها العرب جيلا عن جيل، ومرّ بعدّة عصور إلى أنْ وصل إلى الشّعر الأندلسي، وقد ساعد على انتشاره طبيعة الحياة السّياسية و الاجتماعية لأهل الأندلس خاصة عهد ملوك الطّوائف الذي تميّز بكثرة الحروب والفِتن، ولعلّ أنّ هذه الغزوات والمعارك كانت موضوعا للمُفاخرة والمباهاة في شعرهم، وفي الوقت نفسه كان الشّعر يحرّض عليه ومن أجل ذلك مدح الشّعراء الفرسان وغير الفرسان، والسّادة والملوك والوزراء وعامة النّاس... وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على قُدُسِيَّة الجهاد في الإسلام ، وفي فترة ملوك الطّوائف باعتبارها من أكثر الحقب التاريخيّة التي شهدت حروبا وفتنا، وتعتبر واقعة " الزّلّاقة " من أهمّ المعارك الجهادية التي عرفها عصر ملوك الطّوائف والتي فاضت لذكرها قرائح الشعراء ومن بينهم " ابن القزّاز "[2]، " أبو بحر يوسف بن عبد الصّمد " ، " ابن زيدون " وغيرهم ، وكلّهم أشادوا بمَلكهم المحبوب " المعتمد بن عبّاد"، وذلك لشجاعته وإقدامه في المعارك والحروب.

فابن القزّاز يمدح "المعتمد" الذي طار ثناؤه فلم تسبقه الرّياح، وقد خاض غمار الحرب، وقضى على الفساد ليحلّ محلّه الصّلاح يقول:[3]

ثَنَاؤُكَ لَيْسَ تَسْبِقُهُ الرِّيَـــــاحُ يَطِيـرُ وَمِنْ نَدَاكَ لَهُ جَنَـــاحُ

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَشَبَّتْ فَغَنَّتْ وَهِـيَ نَـــاعِمَةٌ رَدَاحُ

جَزاكَ الله خَيْرًا عَن بِـــــلادٍ مَحَا عَنها الفَسادُ بِكَ الصَّلاحُ

ويواصل "ابن القزّاز" مدح "المعتمد بن عبّاد "على لسان الأمير" يوسف بن تاشفين " الذي يشهد له بالبسالة والشجاعة والإقدام يقول:[1]

رَأَى مِنْه أَبُو يَعْقُوب فِيها عُقـاباً لا يُهاضُ لَهُ جَنـاحُ

فَقالَ لَهُ لَكَ القدْح المغَلَّى إذا ضُرِبتْ بِمَشْهَدكَ القِدَاحُ

---

[2]– ابن دحية الكلبي : المطرب في أشعار أهل المغرب ، ت ح ، مصطفى عوض الكريم ، ط 1 ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، 1954 ، ص 110 ، 116

[3]–. ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 532 ، 533 .

[1]– ابن بسام: الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص .501

ومن ناحية أخرى نجد " المعتمد "قد قام بمدح الأمير" يوسف بن تاشفين " فعلا وبلسانه مستبشرا بالغزو حيث قال:[2]

غَزْو عَلَيكَ مُبـــارَكٌ فِي طَيِّـهِ الفَتْحُ القَرِيـــب

لِلّه سَـيْفُكَ إِنَّـــهُ سَخَطٌ عَلَى دِين الصَّلِيب

لا بُدَّ مِن يَوْم يَكُـو ن لَـهُ أَخٌ يَوْم القَلِيـــب

وتتلألأُ صور الجهاد المشرقة على ألسنة أكبر الشعراء في عصر ملوك الطّوائف ، فهذا " ابن زيدون " نظَم قصيدة يذكر فيها جهاد " المظفّر " الذي استعصم بعُروة الدّين الحنيف وجاهد في اللّه –عبدة الأصنام– حقّ جهاد ، فأرغم أنوفهم وأذلّ شموخهم وجبروتهم يقول مادحا:[3]

أَبوهُ الَّذي فَلَّ غَربَ الضَلالِ وَلاءَمَ شَعبَ الهُدى فَالِتَـأَم

وَلاذَ بِهِ الـدينُ مُستَعصِـمـــاً بِذِمَّـةِ أَبلَجَ وافـي الذِمَـــم

وَجـاهَدَ في اللَهِ حَقَّ الجِهـــا دِ مَن دانَ مِن دونِهِ بِالصَنَم

فَلا سامِيَ الـطَرفِ إِلّا أَذَلُّ وَلا شامِخَ الأَنفِ إِلّا رَغَـم

كما يقول في مدح "أبي الوليد بن جهور":[4]

مهذّب أخلصه أو لسانه كالسّيف بالـغ فـي إخلاصـه الصّنْعُ

إنّ السّيوف إذا ما طاب جوهرها في أوّل الطّبع لم يُخْلَق بها طبعُ

ومن بين شعراء ملوك الطّوائف الذين كتبوا في المدح أيضا نجد " ابن عمّار " الذي تغنّى بشدّة بأس " المعتضد " وهمّته وشجاعته وإقدامه في ساحة المعركة و القتال في مواجهة العدوّ البربري الذي سفك دماءه وضرب جنوده فيقول:[1]

---

[2]– المصدر نفسه، ص .501

[3]– نميري تاج السر أحمد لقمان : الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ، خصائصه واتجاهاته ، ص27 .

[4]– ابن زيدون: الديوان، ص 413، .414

[1]– نميري تاج السر أحمد لقمان : الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ، خصائصه واتجاهاته ، ص.85

شَقَيْتَ بِسَيْفِكَ أُمَّة لَمْ تَعْتَقِد إِلّا اليَهُودُ وَإِنْ سمّت بَرْبَراً

أَثْمَرت رُمْحك مِن رُؤُوس كَمائهُم لَمّا رَأَيت الغُصْن يَعْشَقُ مُثْمِرا

وَصَبَغْتَ ذِرْعَكَ مِن دِماء مُلُوكهُم لَمَّا عَلِمتَ الحُسْن يَلْبَس أَحْمَرا

أمّا " ابن حمديس " فلم يتوان هو الآخر عن مدح الفرسان وإشادته بصولاتهم في ميدان القتال، حيث مدح " المعتمد " ووصف قوّته وشجاعته وبسالته وما فعله سيفه في العدوّ، الذي كان في بداية القتال كالأسود في هجومه ولكنّه ما لبث أن هرب كالأغنام خوفا وفزعا من بطش سيف المعتمد يقول: [2]

وَلُيُوثٍ صالَ فَيَهِم فَٱنْثَنُوا وَضَوارِيهُم لَهُ كَالنَّقْد

بِحُسام مُطفى أَرْواحهُم بِشُواظ البارِق المتَّقِد

لِغِرَارَيْهِ عَلَى هامائهم مِن شَرَر القَدْح ما فِي الزَّنَد

ونجده في موضع آخر يمدح ويشيد بشجاعة " المعتمد " الذي سار على نهج أبيه في الشجاعة والدّفاع عن ديار الإسلام حيث يقول:[3]

هزبر الوَغَى بِالسّيف وَالرُّمْح مُقَدّم لَهُ الضَّرْبَة الفرغاء وَالطَّعْنَة النّجلا

حَمَيتَ حِمَى الإِسْلام إِذ ذدْتُ دُونَهُ هَزْبَر أُو وَشِختِ الرَّشِيد لَهُ شِبْلاً

لَئِنْ قُلْت فِيهِ صحَّ تَأْلِيف سُؤْدُد فَبَارَع نَقْل مِن شَمائِلكَ أَسْتَمْلِي

ومن بين الشّعراء أيضا الذين كان لهم باع في غرض المدح في عصر ملوك الطّوائف نجد " ابن زيدون " الذي مدح بدوره "أبا الحزم بن جهور" فوصفه برجل السّلام الذي يُؤْثِر السّلم على الحروب وشؤمها وهذا دليل على حصافة رأيه وبعد نظره يقول:[1]

وَزِيرُ سِلْمٍ كَفَاهُ يَمْنُ طائِرِهِ شُؤْمُ الحُرُوب وَرَأي مُحْصِد المرُورِ

---

[2]– ابن حمديس عبد الجبّار بن محمد : الديوان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الكتاب العربي، ص 141 .

[3]– محمد شهاب العالي : الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ، ط1 ، دار دجلة ، عمان ، الأردن ، 2008 ، ص 169.

[1]– ابن بسام: الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص 149.

وفي مدحه لـ " أبي حزم " والإشادة به في محافل النّاس كلّ هذا من أجل أن يمنّ عليه بفكّ أسره وإطلاق سراحه بعد أن أتعبه السّجن يقول:[2]

أَلا إِنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلَيــْكَ واقــِفٌ وُقُوفَ الهَوَى بَيْنَ القَطِيعَة وَالوَصْلِ

فَإِنْ تُمنَ لِي مِنـكَ الأَمانِي فَشِيمَـــة لَذاكِ الفِعَال القَصْد وَالخُلُق الرّسْـلِ

وَإِلّا جَنَيتَ الأُنْس مِن وَحْشَة النَّوَى وهَوْل السُّرَى بَيْنَ المطِيَّة وَالرَّحْـــلِ

وَأَيْنَ جَوابٌ مِنْكَ تَرْضى بِهِ العُـــلا إِذا سَأَلْتنِي بَعْدُ أَلْسِنَة الحَفْـــلِ

في هذه الأبيات يظهر الشاعر بنفس كبيرة حتى أنّه مدح نفسه أكثر من مدحه " ابن جهور " فكان معاتبا أكثر منه مادحا.[3]

لذلك فقد يكون هذا من الأسباب التي جعلت " أبا الحزم " لا يستجيب لتوسّلات الشاعر وأبقى عليه في السّجن.

كما أثنى على " المعتضد بن عبّاد " قائلا:[4]

عَدَا الخَمِيس يُقْسِم الغَيْم أَنّـهَ لِأَجْعَل مِنها مُكْفَهِرًّا وَأَكْثُـفُ

هُو العِلْم مِن زُرْقِ الأَسِنَّة بَرْقُهُ وَلِلطَّبْل رَعْد نواحِيهِ يَقْصِــفُ

فَلَمـاً قَضَيْنا ما عَنَانَـــا أَداؤُهُ وَكُلّ بِما يُرَضِيكَ داعٍ فَمُحَلَّفُ

وبهذا نخلص إلى أنّ المدح من الأغراض الشعرية التي نظم فيع شعراء ملوك الطّوائف شعرهم ومزجوه بالاستعطاف، فكان بمثابة المخلِّص لهم من العقاب الواقع عليهم بسبب كثرة الوشايات والدّسائس واضطراب الأوضاع السّياسية وانتشار الحروب.

2- الهجاء:

---

[2]- ابن زيدون: الديوان، ص 163.

[3]- بلاغة العرب في الأندلس: أحمد ضيف ، مطبعة الإعتماد ، مصر ، د ط ، 1983 ، ص 71.

[4]- ابن بسام: الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص 48.

الهجاء باب قديم من أبواب الشعر، وهو فن غنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء، سواء كان موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب[1] ولقد شاع شعر الهجاء في عصر ملوك الطوائف وراج بشكل كبير نظرا أو نتيجة لتقلّب الأحوال السياسيّة واضطرابها واستبداد بعض الحكام بالسّلطة وتقاعسهم عن الجهاد، مما أثار حفيظة الشعراء أمام تقاعس ملوك الطوائف، فهجوا كبار رجال الدولة من الحكّام والأمراء والوزراء وإبراز سياستهم وفساد إدارتهم الداخلية وهجاء المتقاعسين عن الجهاد والمتعاونين مع العدوّ من أجل هدم وحدة الأمة، ومن بين هؤلاء الشعراء نجد "السّميسر" الذي كان يحمل الرّوح الناقدة بين جوانحه، إذ يقول في هؤلاء الملوك:[2]

نادِ الملوكَ وَ قُلْ لَـهُـمْ مَاذَا الَّذِي أَحْدَثْتُـمْ

أَسْلَمْتُمْ الْإِسْـلاَمَ فِـي أَسْرِ الْعِدَا وَ قَعَدْتُمْ

وَجَبَ الْقِيَامُ عَلَيْكَـمْ إِذْ بِالنَّصَارَى قُمْتُـمْ

لاَ تُنْكِرُوا شقَّ العَصَا فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَقْتُـمْ

وقد لحق الهجاء هجاء البرابرة الذين حكموا غرناطة وغيرها ، فهاجم " السميسر" قائلا:[3]

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَـهُ أَبَا الْبَرِيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حُكِمُوا

إِنَّ الْبَرَابِرَ نَسْلٌ مِنْكَ فَقَالَ إذن حَوَّاءُ طَالِقَةً إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا

وفي هذا الهجاء يظهر الشاعر مدى كرهه للبرابرة، وأنّ سيّد البريّة آدم عليه السلام يتبرأ منهم، وأنّ حواء طالق بسبب هذا النسل السّيء.

وفي مقطوعة أخرى يشنّ حربا شعواء على ملوك الطّوائف يقول:[1]

خُنْتُمْ فَهُنْتُمْ وَكَمْ أَهَنْتُـمْ زَمَانً كَنْتُـمْ بِلَا عُيُونٍ

---

[1]- حسين محمد محمد : الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية ، مكتبة الآداب بالجماميز، د ط، د ت ، القاهرة، ص.05

[2]- محمد رضوان الداية : في الأدب الاندلسي، ص 73 ، 74.

[3]- المقري أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ص 376 .

[1]- المصدر السابق، ص.108

فَأَنْتُمْ تَحْتَ كُلِّ تَحْتٍ وَأَنْتُـمْ دُونَ كُلِّ دُونٍ

سَكَنْتُمْ يَا رِيَاحَ عَـادٍ وَكُلُّ رِيحٍ إِلَى سُكُونٍ

وهو في هذه الأبيات يصفهم بالهوان والضّعف والمراتب السّفلى وقلّة الهمّة حيث أن هجاءه لاذع و لامه قاس وجارح.

وهذا " ابن زيدون " ينفي التّهم المنسوبة إليه من طرف الأعداء كي ينالوا منه، وقد شبّه افتراءهم عليه بافتراء أبناء يعقوب على أخيهم يوسف عليه السلام، وينعتهم بالمفسدين الذين يبرعون في إذكاء نيران الفتنة والفساد حيث يقول:[2]

كَـانَ الْوُشَاةُ وَ قَدْ مُنِّيتُ بِإِفْكِهِـم أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَ كُنْتُ الذِّيبَا

فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاغِـرَ مِنْ عِدَا قِرَاهُمْ لِنِيرَانِ الْفَسَادِ ثِقَـابُ

عَفَا عَنْهُمُو قَدَرِي الرَّفِيعُ فَاهْجُرُوا وَ بَايَنَهُـمْ خُلُقِي الْجَمِيلُ فَتَابُوا

كما نجد " المعتمد بن عباد " يحمل على الأعداء الغادرين الذين يظهرون ما لا يبطنون، لكن عداوتهم ظاهرة في ألفاظهم وفي عيونهم، وأنهم هم الذين يستحقون العقاب الشديد وليس المعتمد الذي أخطأ خطأً غير مقصود كانت نتيجته هزيمة نكراء في ساحة المعركة، حيث يقول:[3]

مَا الذَّنْبُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ ذَوِي دَغَلٍ وَفَى لَـهُمْ عَفْوُكَ الْمَعْهُودُ إِذَا غَـدَرُوا

قَـوْمٌ نَصِيحَتُهُمْ غِشٌّ وَ حُبُّهُـمْ بُغْضٌ وَ نَفْعُهُـمْ إِنْ صُرِّفُوا ضَـرَرُ

يُمَيِّزُ الْغَيْظُ فِي الْأَلْفَاظِ إِنْ نَطَقُوا وَيُعْرَفُ الْحِقْدُ فِي الْأَلْحَاظِ إِنْ نَظَرُوا

أما " ابن عمار " فيخصّ (بني عبد العزيز) بالهجوم قائلا:[1]

وَلَا تَلْتَفِـتْ أَمْرَ الْوُشَاةِ وَ قَـوْلَهُمْ فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرْشَـحُ

سَيَأْتِيكَ فِي أَمْرِي حَدِيثٌ وَقَدْ أَتَى بِزُورٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْعَزِيزِ مُوشَّـحُ

---

[2]– محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، ص 143 .

[3]– ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص.148

[1]– محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، ص 144 .

تَـخَيَّلْتُـمْ لَا درّ اللَّـهِ دَرَّهُـــــــمْ أَشَارُوا اتِّجَاهِي بِالشّمَاتِ وَصَرَّحُوا

وفي هذه الأبيات يتضح أن بين الشاعر وبين بني عبد العزيز عداوة، فأخذوا يفترون عليه كي يملأوا صدر المعتمد عليه فيعاقبه ويشمتون فيه.

وهذا " أبو عامر الاصلي " يقول:[2]

أَرَى الْأَوْغَادَ يَعْتَمِرُونَ دُورًا وَمَـالِي فِي بِلَادِ اللهِ دَارُ!

أَجُـولُ فَمَا أَرَى إِلَّا رِعَاعًا كِبَارُهُمْ إِذَا اخْتُبِرُوا صِغَارُ!

ففي شعره كلام صريح ولاذع كلّه هجاء وذمّ للحال الذي وصلت إليه مدينته من اعتلاء الأوغاد لسدّة الحكم، وأكبرهم شأنا في نظام الحكم هو عند الحاجة والخضوع للاختبار هو في الحقيقة صغير.

ونجد أيضا " أبا الحسن يوسف بن الجدّ " الذي هجا "ابن النّغريلة اليهودي" الذي عينه صاحب غرناطة باديس كاتبا له، فاشتطّ في حكمه، فاختلس الأموال وعاث في الأرض فسادا وتآمر على قتل وليّ عهد باديس وأنفدها ولم يكن الحاكم باديس لينتبه لولا تنبيه الفقهاء والعلماء له، وظهور قصائد تُعرّي حقيقة الكاتب اليهودي وتكشف أعماله . ومن شعر " ابن الجدّ ":[3]

تَحَكَّمَتِ الْيَهُـودُ عَلَى الْبُرُوجِ وَتَاهَـتْ بِالْبِغَالِ وَالسُّـرُوجِ

وَقَامَـتْ دَوْلَـةُ الْأَنْذَالِ فِينَـا وَصَـارَ الْحُكْـمُ فِيهَـا لِلْعُلُـــــوجِ

فَقُلْ لِلْأَعْـوَرِ الدَّجَّالِ هَـذَا زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ

فهنا الشاعر يوضح بأن هذا الكاتب صار بمنزلة – كبير الوزراء متحكّما في أمور المسلمين رجالهم ونساءهم، واستغلّ مركزه في سرقة الأموال واختلاسها، وأن هذا الذي يجري في غرناطة نذير شؤم لظهور الأعور الدّجال وقرب نهاية الدّنيا.

---

[2]- محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 73 .

[3]- المرجع نفسه، ص.73

كما علا صوت الفقيه الزاهد " أبي إسحاق الألبيري" ضدّ ابن النّغريلة، وأنشد قصيدة طويلة مجلجلة الصوت، حفظها النّاس وكانت من أهم المحرّضات على الثورة العارمة لأهل غرناطة، والتي انتهت بمقتل ذلك المتنفّذ السّيء السلوك والمفسد في الأرض، ومن شعره المذكور:[1]

أَلَا قُلْ لِصنْهَاجَةَ أَجْمَعِين بدُور النّدي وَ أَسَدُ الْعَرِينْ

لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينْ

تَخَيَّرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينْ

وأعلن الالبيري صراحة أن الحل هو التخلّص من هذا الكاتب الفاسد، الذي استقوى عليهم وصار يتصرّف بالمملكة دون أن ينتبه باديس لمفاسده ومؤامراته المتواصلة.

وهذا " ابن الحداد " هاجيا " المعتصم بن صُمادِح":[2]

يَا طَالِبَ الْمَعْرُوفِ دُونَكَ فَاتْرُكَنْ دَارَ الْمَرِيَّةِ وَارْفُضِ ابْنَ صُمَادِح

رَجُلٌ إِذَا أَعْطَاكَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَلْقَاكَ فِي قَيْدِ الْأَسِيرِ الطَّائِحِ

لَوْ قَدْ مَضَى لَكَ عُمْرُ نُوحٍ عِنْدَهُ لَا فَرّقَ بَيْنَكَ وَ الْبَعِيدِ النَّازِحِ

ونجد " ابن عمار" في مكان آخر يهجو صديقه " المعتمد" بعدما فسدت العلاقة بينهما:[3]

مِمَّا يَقْبَحُ عِنْدِي ذِكْرُ أَنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَ مُعْتَمِدِ

أَسْمَاءُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صولَةَ الْأَبَدِ

كما هجا " عبد الملك بن غصن الحجاري " "المأمون بن ذي النّون"* هجاءً مقذعاً بقوله:[1]

تَلَقَّبْتُ بِالْمَأْمُونِ ظُلْمًا، وَ إِنَّنِي لَآمَنُ كَلْبًا حَيْثُ لَسْتُ مُؤَمِّنَهُ

---

[1]– محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 74 ، 75 .

[2]– إنتصار خليل محمد النّجار: المدن الأندلسية في شعر ملوك الطوائف، إشراف علي أبو حمدة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2000، ص 43.

[3]– محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، ص 56 ، 57.

* المأمون ذي النّون : إسمه يحي ، ملك طليطلة ، استولى على قرطبة وقتل ابنا للمعتمد فيها ، ثم استولى على بلنسية ، احتلّ الإسبان بلاده واشترطوا عليه أن يظاهرهم على أهل بلنسية مقابل انسحابهم من طليطلة، فقبل شرطهم.

[1]– حسين محمد محمد : الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية ، ص 28.

حَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُودَ بِبِشْرِهِ وَأَمَّا النَّدَى فَانْدُبْ هُنَالِكَ مَدْفَنَهُ

سُطُورُ الْمَخَازِي دُونَ أَبْوَابِ قَصْرِهِ بِحِجَابِهِ لِلْقَاصِدِينَ معنونـهُ

فلمّا تمكن منه المأمون سجنه.

وبهذا يمكن القول أنّ الهجاء من الأغراض الشّعرية التي خرج إليها شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطّوائف نظرا لكثرة الحروب وانتشار العداء، فالشّاعر منهم يهجو أعداءه وحسّاده في شعره.

3– الفخر:

الفخر هو الاعتزاز بالفضائل الحميدة التي يتحلى بها الشاعر من شجاعة وكرم ونجدة ومساعدة المحتاج، والفخر يشمل جميع الفضائل، وهو من أول فنون الأدب تأثيرا على فطرة الإنسان ويكون بتعداد الصّفات الكريمة لمن يفخر وتحسين السّيئات منها، والفخر من نتاج العاطفة الجياشة الصادقة والانفعال القوي. ومن هنا لا يلتزم الفخر بالحقائق التاريخية، بل يعمد إلى المبالغة والتّهويل وإطلاق الخيال الخصيب، وتنطلق فيه الألفاظ والعبارات مرافقة له مطابقة لمقتضى حاله مشتدّة بشدّته.[2]

وعن الفخر في الأندلس في عصر ملوك الطوائف نقول أن الفخر في هذا العصر قد ضاقت نواحيه التي عرف بها الافتخار بالقبيلة، إلاّ أن هذا لم يمنع شعراء هذه الفترة من التفاخر بأنفسهم، خاصة فيما يتعلّق بالشّجاعة والبسالة في الحروب وقيادة الجيوش، فهذا " ابن عمار " الذي دخل (سرقسطة) وبلغه أنّهم نقدوا عليه شُربه فقال في الافتخار بنفسه وبقيادته للجيوش مبيّنا بأن معاقرته للخمر لم تغير من كونه قائدا صارما ومقتدرا للجيوش حيث يقول:[3]

نَقَمْتُمْ عَلَيَّ الرَّاحَ أُدْمِنُ شُرْبَهَـا وَ قُلْتُمْ فَتَى لَهْوٍ وَ لَيْسَ فَتَى جِدٍّ

وَمَنْ ذَا الَّذِي قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الْوَغَى سِوَايَ وَ مَنْ أَعْطَى الْكَثِيرَ لَمْ يَكَدْ

---

[2]– جبور عبد النور : المعجم الأدبي ، مطبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، 1984، ص.250

[3]– نميري تاج السر محمد لقمان : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف اتجاهاته وخصائصه ، ص .47

كما افتخر الملوك بقولهم وبلائهم في الحروب وفتحهم المدن والقلاع والحصون، وحقّ لهم أن يفتخروا بذلك لأنّ الأمراء والملوك كانوا هم قوّاد الجيوش وفرسان الحروب فالملك "المعتمد بن عباد" يفتخر بشجاعته وحمايته لمجد أسلافه وبتقصيره لآجال أعدائه، حيث يقول:[1]

حَمَيْتُ ذمَار الْمَجْدِ بِالْبِيضِ وَ السُّمْرِ وَقَصَّرْتُ أَعْمَارَ الْعُدَاةِ عَلَى قَسْرِ

كما كان "ابن زيدون" من أكثر الشّعراء افتخارا بنفسه واعتدادا بها أثناء استعطافه بخاصة في تلك القصائد التي نظمها في بدايات نكبته وسجنه، فقد بدا "ابن زيدون" في تلك القصائد رجلا محافظا على كرامته واثقا من نفسه، تشيع في أشعاره روح الكبرياء والأنفة من ذلّ القيود وكبوة السّجن حيث يقول:[2]

وَلَوْ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ كَيْ أُرْضِي الْعِدَا شَرَيْتُ بِبَعْضِ الْعِلْمِ حَظًّاً مِنَ الْجَهْلِ

جَوَادٌ إِذَا أَسِنَ الْجِيَادُ إِلَى مَدًى تَمَطَّرَ فَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الْخِصَلِ

ففي هذه الأبيات "ابن زيدون" يبين افتراء الأعداء والحسّاد عليه بسبب علمه وفضله، كما يحاول "ابن زيدون" أن يوضّح بأن النّكبة التي تعرّض لها إنما حصلت بفعل دسائس الأعداء والوشاة الذين لم ينالوا منه، إلا أنه يتقدّم عليهم بعلمه فقاموا بإضراره لأنه يتقدّمهم كما يتقدم الجواد السابق بقية الجيّاد في مضمار السباق.

وفي بيت آخر يقول مفتخرا:[3]

إِنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبْ قَدْ يُودَعُ الْجَفْنُ حَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ

ففي هذا البيت يشبّه الشّاعر نفسه وقد سُجِن بالسّيف الذي أُودِع في غِمده، حيث ظهر الشاعر متماسكا من خلال هذا البيت عندما خاطب سجّانه "أبا الحزم ابن جهور"، حيث لم يجزع من سجنه، بل اعتبر أنّ ما تعرّض له أمر طبيعي، لأنّ الإنسان العظيم فقط من يُنْكَبْ، كما أنّ السّيفَ الصّارم قد يُودَعُ في غمدِه بكل بساطة.

---

[1]– ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص .113

[2]– ابن زيدون : الديوان ، ص .161

[3]– المصدر نفسه، ص.149

ويفخر " ابن خفاجة " بنفسه وبنفرٍ من صحبه الذين يراهم على شاكلته من أهل بلدة " شُقر" مفتخرا بشجاعته وقوّته فهو لا يهاب الموت، ولا يخاف مواجهتها في ساحة المعركة:[1]

مضاء كَمَا سُلَّ الحُسَامُ مِنَ الْغِمْدِ وَبَأْسَ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزَّنْدِ

تَسَاقَوا وَ مَا غَيْرُ النَّجِيعِ[*1] سُلَافَةٌ تُدَارُ وَلَا غَيرُ الْأَسِنَّةِ مِنَ وِرْدِ

وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قناتِهِمْ لَخِذْنُ الْعُلَا تَرْبُ النَّدَى لِدَّة الْمَجْدِ

أَخُوضُ الظِّبَا[*2] تَخْضَرُّ فِي النَّقْعِ بَيْضُهَا فَأَلْقَى الْمَنَايَا الْحُمْرَ فِي الْحَلَلِ الزُّمْدِ

وهو فخر على الطريقة العربية البدويّة، حيث أنّ الشّاعر عمل على استحضار معانيه كما يصطنع أدواته وأساليبه.

وكثيرا ما افتخر "المعتمد" حتى وهو في محنته، فقد قال "ابن بسّام" وممّا قاله بعد زوال سلطانه، وتَضَعْضُعِ بُنيانه، لما دخل عليه البلد يوم الثّلاثاء منتصف رجب سنة أربعمائة وأربعة وثمانين خرج مدافعا عن ذاته وذابًّا على حرماته وظهر يومئذ من بأسه، ومن تراميه "زعموا". على الموت بنفسه ما لا مزيد لبشر عليه، ولا تناهى لخلق إليه[2]، فقال مفتخرا بشجاعته وبشرفه الرّفيع وبعراقة أصله:[3]

لَمَّا تَمَاسَكَتِ الدُّمُوعُ وَ تَنَبَّهَ الْقَلْبُ الصَّدِيعُ

قَالُوا: الْخُضُوعُ سِيَاسَةٌ فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ

وَأَلَذُّ مِنْ طَعْمِ الْخُضُوعِ عَلَى فَمِي السُّمُّ النَّقِيعُ

إِنْ يَسْلُبِ الْقَوْمُ الْعِدَى مُلْكِي وَتُسْلِمُنِي الْجُمُوعُ

---

[1]– محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 79.

[*1] النّجيع : الدّم.

[*2] الظّبا : جمع ظبّة ، وهي الحدّ من السيّف وغيره.

[2]– ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 28.

[3]– نميري تاج السر محمد لقمان : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف اتجاهاته وخصائصه ، ص 138.

هكذا يكون شعر الملوك تباهيا بالعزّة، دفاعا عن المجد وتصويرا لخوض غمار الأهوال دون التّفكير في التراجع أو الرّجوع خاصة عند القتال ودخول ساحة الوغى والحرب، فهو ثابت في المعارك الحربية لا يتزعزع.

الفصل الثاني

الخصائص الفنية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف

المبحث الأول:: المعجم الشعري

المبحث الثاني: التراكيب النحوية والبلاغية

المبحث الثالث: الموسيقى الخارجية والداخلية

الفصل الثاني: الخصائص الفنية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف

المبحث الأول : المعجم الشعري

يتوسّل الشّاعر باللّغة للتّعبير عن أفكاره ومشاعره، ومفردات اللّغة ملك عام للشعراء يتعاطونها وفق نظام لغوي مصطلح عليه، ولذا فإنّنا لا نستطيع أن نقول أن الحالة النّفسية للشاعر تقتضي اختيار قطاع لغوي دون غيره لانسجامه مع الموضوع أكثر من غيره، ومن هنا فإن شعر الحروب والفتن وما يندرج تحته من أغراض شعرية من رثاء وفخر وهجاء واستعطاف واستصراخ يضع الشعراء أمام خيارات عديدة يقتضيه الخطاب الشعري، فغرض الاستصراخ و استنهاض الهمم يقتضيان التّركيز على ألفاظ التّشجيع والقوّة والبطش، وغرض الرّثاء يقتضي ألفاظا بعينها وتراكيب دون غيرها انسجاما مع وجدان المبدع كألفاظ البكاء والدّموع والحزن والحسرة...

وتوضيحا لما سبق ذكره نحاول إلقاء الضوء على المعاجم المسيطرة في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف وتتبّع دلالتها.

1- المعجم الحربي:

كان للحروب المتواصلة في الأندلس وخاصة عصر ملوك الطوائف الأثر الواضح لظهور شعر الحروب والفتن الذي صوّر فيه الشعراء مختلف جوانب الحرب وما خلّفته من دمار وخراب كما أخد السلاح وأنواعه الذي استخدموه في المعارك حيّزا واسعا في شعرهم، فذكر الشّعراء الأسلحة الحربية من سيوف ورماح وسفن وأساطيل وهذا نظرا لأهميتها ودورها في تحقيق النّصر والحفاظ على أرضهم وارتباطه بهدف عظيم وهو نشر الدين الإسلامي وردع المشركين وإعلاء كلمة الله في مشارق الأرض ومغاربها، كيف لا وقد حثّ الدّين الإسلامي على ضرورة الدفاع عن الدّين بشتّى الأساليب والوسائل، كما في قوله تعالى:

" وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ "*

* سورة الأنفال الآية 60.

لذلك فقد جاء شعر الحروب والفتن في الأندلس في عصر ملوك الطوائف زاخرا بذكر السلاح، فدخل في معظم الأغراض حتى شمل مساحة واسعة من شعرهم من مدح وفخر ورثاء، حيث كان القتال لدى الأندلسيّين سمة بارزة واضحة في المحافظة على الدّولة الإسلامية في الأندلس من النّصارى.

ومن الشّعراء الذين وظّفوا المعجم الحربي نجد "ابن حمديس" حيث يقول:[1]

بِحُسَامٍ مَطْفِىء أرواحَهُم بِشُـوّاظِ البَـارِقِ المتَّقِـــــدِ

كَغِرَارَيه على هامَاتِهِـــم من شَرارِ القَدْحِ مَا في الزَّنْدِ

"فالحسام" هو من أسماء " السّيف " و" الغرار" هو حدّاه وشفرتاه، فهو هنا يَشِيد بشجاعة " المعتمد بن عبّاد " وقوّة سيفه الذي يتطاير منه شوّاظ النّار لحدّة شفرتيه.

ويقول أيضا:[2]

مِن كُلّ أبيضٍ راكِضٍ في غِمْدِهِ لُجُّ المنِيّةُ مُعَطَّبُ بالسّاحِلِ

الشّاعر هنا يصف السّيف ودخوله إلى الغمد بعد استخدامه في المعركة و رائحة الموت تفوح منه.

وفي موضع آخر يشبه صوت القسّي بأصوات وألحان وترانيم وأنغام الموت الممزوج بالسّم بعد أن مرقت سهامها نحو الأعداء يقول:[3]

ومُعَلّمَاتٍ طُلوع النَّبْعِ حيثُ لَها في نَزْعِهِنَّ بألحَـانِ الرّدَى نَغَـــــمُ

كَأنّمَـا سُمّ الأعـداءِ أسْهُمَهَـــا من الرّدَى بَسَمَات، ويحٌ مِن تَسِمُ

أما المعتمد بن عبّاد فيقول:[4]

وقِسِـيٌّ تَنْبُعُ كالأهِلّةِ تُوّجَتْ بِنُجومٍ أسْهُمُهَا لَنَزْعِ النّـــــازِعِ

خُرْسٌ وتَنطِقُ بالأنينِ وما بِهَا وصْبٌ وتَقْذِفُ بالسِّمَامِ النّاقِـعِ

---

[1]- ابن حمديس : الديوان، ص 12.

[2]- المصدر نفسه، ص.15

[3]- المصدر نفسه، ص 465، 466.

[4]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 30.

فالشّاعر هنا يشبّه القسيّ بالأهلة، ويصوّر انطلاق السّهام منها بالنّجوم المضيئة وصوتها بأنين المريض تقذف العدوّ بسمّ ناقع لا نفاد منه.

في عصر الطوائف حظيت السفن والأساطيل بعناية خاصّة، فأصبح لكلّ دويلة من هذه الدّويلات أسطولا خاصّا بها، لذلك نجد الشّعراء يشيدون بها وبقوتها فمثلا هذا "ابن اللبانة" يصف الأسطول الميورُقي الذي طالما كان مصدر خطر للعدوّ، إذ يقول:[1]

لَك المِنْشَآتُ الجَارِيآتُ كَأنّها ضَوَارِي شَوَاهِينَ على الماءِ حُومُ

فالبيت الشّعري يحيل إلى قوله تعالى " وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ "*

إذ يرتكز هذا البيت على النّص القرآني، فوصف الشّاعر أشرعة السّفن بطيور البان وهي تحلّق فوق سطح الماء وبالتّالي المنشآت الجاريات هنا هي الأساطيل والسّفن.

أمّا "ابن حمديس" فقد وظّف لفظة أسطول عند وصف أحد الأساطيل الأندلسيّة في عصر ملوك الطّوائف إذْ يقول:[2]

في أسَاطِيلَ تَرى أحْشَاءَهَا لِبَنَـاتِ الرُّومِ فِيهِنّ انْتِحَـابُ

كَكُنـاّسٍ بِغمْـتِ غِزْلانُـــهُ مِن زَئِيرٍ رَاعَها مِنْ أُسْدِ غَابِ

كُلٌّ مُسْـوَدٌ قَرَاهُ خِلْقَـــةً لابسًـا مـِنْ ذَلِـكَ إهَـــــابُ

إن ثُعْبـانُ سَراه يَقْتَـــدي في نَعِيـبٍ مِنهُ بالبرِّ غُـــرَابُ

ونجده أيضا استعمل لفظة المنجنيق والقنا والقنابل في قوله:[3]

ولاَ مَجَانِيقَ إلاَ ضُمّرٌ جعـلت ضُمُورُهَا حولها الأبطالُ والبُهَمُ

تَرمـي قلوبَهم بالرُّعـبِ رؤيتُهَـا كَمَا يُرَوِّعُ نِيَامًا بالرَّدَى الحُلُـمُ

---

[1]- شعر ابن اللبانة: جمع وتحقيق د . محمد مجيد السعيد، جامعة بيروت 1977، ص 97.

* سور الرحمان الآية .24

[2]- ابن حمديس: الديوان ، ص .121

[3]- ابن حمديس : الديوان ، ص .465

كَأنّما الحِصْنُ من خَوفٍ أحَاطَ بِهِم عَليهِـمْ، وهو المِنْنِيُّ، مُنْهَـدِمُ

فـ"بن حمديس" يصف المنجنيق ورهبة منظره الذي كان يبعث في العدوّ الرّعب والهلع، كما يرعب النّائم عندما يرى حلما مزعجا ، فبدا ذلك الحصن من شدّة خوفهم وهلعهم ، وكأنه هُدم فوق رؤوسهم.

ويقول أيضا مادحا " علي بن يحي " ويصف أسلحة المسلمين التي فتكت بالأعداء إذ يقول:[1]

يوجّه وَجْهُ الحَرْبِ نَحْوَ عَدَاتِهِ ويَحْشُو حَشَاهاَ بالقَنَا والقَنَابِلِ

فالمدفع الذي يرمي بالمنجنيق يُعدُّ من الأسلحة التي كان لها حضورا واسعا في حروب ملوك الطوائف، وذلك لقدرته الفائقة على سحق مجموعات كبيرة من الأعداء.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الحروب تستدعي الهجوم والدّفاع وبما أن شدّة الحروب التي عرفها عصر ملوك الطّوائف وضراوتها حتّمت على الملوك والأمراء بإعداد العدّة لمواجهة العدوّ والدّفاع عن أنفسهم وقد عبّر "ابن حمديس" عن هذا في شعره ووصفه لدروع المسلمين التي ضوعف نسجها وتداخلت حلقاتها وتشابكت بحيث أصبح من الصّعوبة تقدير عددها و هذا زيادة في الحماية والأمان في المعارك إذ يقول:[2]

ودُرُوعٍ قَدْ ضُوعِفَ النَّسْجُ مَنْهَا وتَنَاهَى في سِرِّهَا التَّقْدِيرُ

ويصفها أيضا بالقول:[3]

وفَضْفَاضَةٍ خَضْرَاءَ ذَاتَ حَبَائِكٍ إذَا لُبِسَتْ فَاضَتْ عَلىَ بَطَلٍ كُفُوٍ

لَهَا لينُ لِمَنْ لا يَخَافُ خُشُونَـةً تَشَافَهَهَا مِنْ حِدَّةٍ ذِي شَطْبٍ مُهُوِ

فـ" ابن حمديس " يقول بأنّ تلك " الدّروع " ليّنة واسعة تريح المقاتل عند ارتدائه لها في القتال.

كما شكى " المعتمد " من آلام القيد قائلا:[4]

تَبَدَّلْتُ مِنْ عِزِّ ظِلِّ البُنُودِ بَذَلَ الحَدِيدِ و ثِقَلَ القُيُودِ

---

[1]- ابن حمديس : الديوان ، ص .465

[2]- المصدر نفسه، ص.247

[3]- المصدر نفسه، ص .521

[4]- فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص .177

فهو يشتكي ثقل القيود بعد أن كان مَلكاً ليجد نفسه تحت وطأة السّجن والقيد لتشكّل لفظة " القيد " نتيجة من نتائج الحرب.

مما تقدّم يمكن القول أنّ شعر الحروب والفتن من الموضوعات التي تتطلّب معجما خاصّا وألفاظا تعبّر عن الحرب وجميع جوانبها، فكان المعجم الشعري ثريّا بذكر مختلف أنواع السلاح كالسّيف والرّمح الدّرع، السّهام، المنجنيق، القنا... فضلا عن مرادفات تلازمها كالألفاظ التي نعتوا بها سيوفهم الصّوارم، البيض، الحسام، الصّارم الذكر، المهنّد... بالإضافة ألفاظ أخرى من تبعات الحرب كالقيد، السلاسل، الحديد، النّار، السّجن...

وكلّها ألفاظ تحيل القارئ إلى جو حربي غارق في الشّراسة والضّراوة والدّمويّة والعنف.

2- المعجم الديني:

إنّ من أفضل نِعم الله تعالى ولّى الإنسان نعمة اللغة وقد ألفت القران الكريم الانتباه إلى هذه النّعمة فقال: "الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان"[*1]

فهي ابنة القرآن، إذ تربّت في حضنه وبفضله رسمت لنفسها البقاء والخلود، وقال تعالى: "وإنّه لتنزيل ربّ العالمين (192) نزل به الرّوح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين عربي مبين بلسان عربي مبين"[*2]

وقد جعل الشّعراء بعض آياته مصدرا مهما في تبليغ رسالته للآخرين، فتقاطعت بذلك بعض أساليبهم مع الأسلوب القرآني المعجز، وطبيعي أن نجد شعر الحروب والفتن في الأندلس في عصر ملوك الطوائف محمّلة بالألفاظ والكلمات الدّينية التي تحمل دلالات وأبعاد عميقة.

ومن أمثلة ذلك نجد قول "ابن حمديس":[1]

كأنّ شُهُبُ رُجُومٍ في أسِنَّةٍ يُرْدِي بِهَا مِنْ طُغَاةِ الكُفْرِ مَنْ وَرَدَا

[*1]- سورة الرحمان، الآيات .1،2،3،4

[*2] سورة الشعراء، الآيات 192، 193، 194، 195.

[1]- ابن حمديس: الديوان ، ص .170

فهو يُشبِّهُ أسِنّةَ الرِّمَاحِ بالشُّهُبِ المحرقة التي ترجم أهل الضّلالة والطّغيان فلفظة "الشّهب" وردت في النّص القرآني في قوله تعالى: "إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب"، فقد جعل الله "الشهب" أدوات لرجم الشّياطين أمّا "ابن حمديس" فجعلها أدوات لرجم العدوّ من أصحاب الضّلالة.

ومن الألفاظ الإسلامية التي كثر استعمالها في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف نجد (نصر الله، دين الله، في سبيل الله...) ليُبيّن الشّاعر منهم أنّ الحروب والمعارك في الأندلس كانت حروبا في سبيل الله ولأجل نصرة الإسلام والمسلمين كقول "ابن حمديس" في مدح "الحسن علي بن يحي" وقد سلّ سيفه مجاهدا لنصرة دين الله ورفع راية الإسلام.[1]

مَلِكٌ لِنَصْرِ الله سَلَّ مُجَاهِدًا غَضَبًا تُوقِدُ بالمتُونِ و سَالاَ

كما تردّد لفظ اسم النبي " محمد عليه الصلاة و السّلام " في شعر الحروب و الفتن ،كما في قول " ابن حمديس " و هو يمدح " أبا الحسن علي بين يحي " قائلا:[2]

مَا صُونِ دِينُ مُحَمِّد مِن ضَيْمِهِ إلاّ بِسَيْفِكَ يَومَ كُلّ جَلاَدِ

أمّا " إسحاق الإلبيري " فيقول:[3]

بَلَنْسِيّة جَنّةٌ عَالِيّةٌ ظِلاَلُ القُطُوفِ بِهَا دَانِيّة

فلفظة "جنة" و"قطوف" و"دانية" تعبّر عن مدى جمال مدينة بلنسية فهي تمتاز بجمال طبيعتها الخلابة كالجنة: وقد وردت هذه الألفاظ في القرآن الكريم سورة الحاقة[*]

وبما أنّ القرآن الكريم بحر لا ينضب فقد نهل منه شعراء الأندلس ما استطاعوا من ألفاظ وأفكار فهذا" ابن الحداد" يقول:[4]

بِلاَدٌ غَدَتْ يَأْجُوجُ فِيهَا فَأَفْسَدَتْ فَكُنْتَ كَذِي القَرْنَيْنِ و الجُحْفُلِ

---

[1]- ابن حمديس: الديوان ،ص 377.

[2]- المصدر نفسه، ص 140.

[3]- انتصار خليل محمد النجار : المدن الاندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف ،ص 120.

[*] سورة الحاقة، الآية 22، 23.

[4]- انتصار خليل محمد النجار : المدن الاندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف ،ص 121.

ووردت لفظة "يأجوج" ولفظة "ذي القرنين" في قوله تعالى " قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا"*

فالشّاعر هنا يحاول أن يوضّح بأنّ النّصارى عاثوا فسادا في بلاد الأندلس عصر ملوك الطوائف كما عاث يأجوج و مأجوج فسادا في الأرض في عصر الملك ذو القرنين.

أمّا " ابن خجافة " فيقول مستعملا لفظتي (الصّعيد و التّيمم) في قوله:[1]

وقَبَّلْتُ رَسْمَ الدِّيَارِ حُبًّا لأهْلِهاَ ومَنْ لَمْ يَجِدْ إلاّ صَعِيدًا تَيَمَّمَا

فلفظتي (الصّعيد والتّيمم) تدُلاّن على الطّهارة، وقد ربط "ابن خجافة" بين صورة من يسعى إلى لَثْمِ بقايا ديار الأحبّة بصورة توحي بالسّعي خلف الطّهارة التي تتحقّق وإن فقدت وسيلتها الحقيقيّة، فلكلّ شيء بديل يُسْتَعَاضُ به، فجعل من حكم التيمّم برهانا يثبت فيه شرعيّة تقبيله لآثار الدّيار بعد أن أقفرت من أهلها فمن لم يجد الماء فصعيدا طيّبا.

وتجدر الإشارة أيضا إلى شيوع ألفاظ مستمدة من السّنة النّبوية في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطّوائف فلم يكن القرآن الكريم الرّافد الديني الوحيد لمعجهم الشّعري، بالإضافة إلى شيوع ألفاظ دينيّة مثل (مفروض، واجب، فسق، فجور، معقلا للدّين، النّكير، المارق، السّعير، المسك، ذنوب، المسلمين، كبائر، الجنّة، النّار، الكعبة...) وهذه الألفاظ تبرز عظم الأثر الذي تركه الموروث الدّيني في تشكيل معجم ولغة شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطّوائف كما تبرز تمتّع شعراء هذا القرآن بثقافة دينية واسعة مكّنتهم من رفد موضوعاتهم بما يناسبها من لغة وأسلوب.

3- المعجم العاطفي:

هذا المعجم وجداني ذاتي يعبّر عن الحالة النفسية للشّاعر من حزن وفرح وغضب...، يقوم على دوال

* سورة الكهف: الآية 9.

[1]- انتصار خليل محمد النجار: المدن الاندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف، ص 123.

لفظيّة تنفذ إلى وجدان المتلقّى بصورة حسيّة، بحكم قربها من ذاته ومعايشته الذّاتية لها"[1]

وقد شكّل المعجم العاطفي لشعر الحروب والفتن مزيجا من ألفاظ البكاء والحسرة والألم خاصّة فيما يتعلّق بغرض الرّثاء باعتباره أكثر الأغراض الشّعرية التي تستدعي مشاعر الحزن والألم والحسرة، وبالتّالي اعتماد الشّعراء على هذا النّوع من الألفاظ للتّعبير عن ما يختلج بداخلهم من أحاسيس و مشاعر.

ومن أمثلة ذلك نجد لفظة "بكى" أو "البكاء" والتي وردت في قصائد "المعتمد بن عباد"، فمن خلال لفظة "بكى" نجد شخصية المعتمد الأسير الكسير البال المحطّم الحال، الذي سكب الدموع بغزارة بعد ما سيطرت عليه عاطفة الحزن مما حلّ به من نكبة يقول:[2]

بَكَى المَبَارَكُ في إثْرِ ابْنِ عَبَـــّادِ بَكَى على إثْرِ غِزْلانٍ و آسَادِ

بَكَتْ ثُرَيَّـاهُ لا غُمَّتْ كَوَاكِبُهَـــا بِمِثْلِ نُوءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الغَـادِي

بَكَى الوحِيدُ، بَكى الزّاهِي وقُبّتُهُ والنَّهْرُ و التَّاجُ كُلٌ ذُلُّهُ بَادِي

فلفظة "بكى" كفيلة بأن تُترجم مرارة ما أحسّه الشّاعر من حزن وألم بسبب الدّمار والخراب الذي خلّفته الحرب في عصر ملوك الطوائف، فحتى قصوره (قصر المبارك)، (قصر الثريا)، (قصر الزاهي) تشاركه حزنه وبكاؤه.

ومن الشّعراء الذين بكوا "المعتمد" ومملكته وشكّلت عاطفة الحزن والألم عنده شعرا يتدفق حزنا ومرارة نجد "ابن عبد الصمد" قائلا:[3]

قَدْ كُنْتُ أحْسَبُ أنَّ تَبَدُدَ أدْمُعِي نِيـرانُ حُزْنٍ أُضْرِمَـــتْ بِفـــؤَادِي

فـإذَا بِـــدَمْـعِي كُـلَّمـا أجْرِيْتُـــــهُ زَادَتْ علـــى حَـــرَارَةَ الأعْبَـاء

فالعَيْنُ في التِّسْكَـــابُ والتّهتَـــانِ والأحْشَاءُ في الإحْرَاقِ و الإيقَادِ

[1]- عبد الوهاب بوقرين: ثورة اللغة الشعرية، بحث في البنية اللغوية للخطاب الشعري الجزائري المعاصر، دار المعرفة، ط1، 2004، ص20.

[2]- فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس شعر ملوك الطوائف، ص132.

[3]- المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ص.165

تشكّل الأبيات عاطفة الحزن والألم فقد تعدّدت دوال الدّمع، أدمعي، بدمعي، العين، التّسكاب وتعددت دوال النّار، نيران، حرارة، الإحراق، الإيقاد، فذات الشاعر موزّعة بين الدّموع ونار الحزن بعدما سيطرت عليه عاطفة الحزن والألم والحسرة لمصاب الملك"المعتمد بن عبّاد" وزوال ملكه.

أما "السّميسر الألبيري" فنجده وظف لفظة "البكاء "بعدما رأى "الزهراء" وهاله ما حلّ بها من دمار وخراب فبكاها بحرقة فترجم عاطفة الحزن والألم عنده بهذه الأبيات إذ يقول:[1]

فَقُلْتُ يا زَهْرَاءُ ألاَ فَارْجِعِي قالَتْ وهَـلْ يَرْجِعْ مَنْ مَاتَا

ولَمْ أزَلْ أبكي و أبكي بهـا هيهات يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَا

لفظتي "أبكي" و"الدمع" تعبّران عن مدى عاطفة الحزن والألم التي أحسّ بها الشّاعر عند رؤيته للزّهراء.

أما عاطفة الأسف والحسرة فنجدها في قول الشاعر "ابن شهيد" الذي يقول:[2]

فَيَا أسَفَاهُ يَا أسَفَاهُ حُزْنًا يُكَرّرُ مَا تَكَرّرتْ الدّهُورُ

فالشّاعر هنا بعدما سيطرت عليه عاطفة الأسف والحسرة يحاول أن يقول بأنّ ما حلّ بهم ألمٌ مستمر فبتكراره للفظة "يا أسفاه" أضاف معنى الامتداد والدّيمومة لعاطفة الألم متصديا للزّمان، مخلّدا لذكر ما كان في مدينته.

و يقول "أبو اسحاق الإلبيري":[3]

فَآهٍ ألُوفًا تَقْتَضِي عَدَدَ الحَصَا على عَهْدِهَا مَا عَاهَدَ السَحَائِبُ

فلفظة "آه" تحمل الكثير من مشاعر الحرقة و الحسرة

أما "ابن خفاجة" فيقول:[4]

آهٍ مِنْ غُرْبَةٍ تُرَقْرِقُ بَثًّا آهٍ مِنْ رِحْلَةٍ تَطُولُ نَوَاهَا

---

[1]- المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ص.527

[2]- المصدر نفسه، ص.483

[3]- انتصار خليل محمد النجار: المدن الأندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف، ص .144

[4]- المصدر نفسه، ص.145

آهٍ مِنْ فُرْقَةٍ لِغَيْرِ تَلاَقِ آهٍ مِنْ دَارِلا تُجِيبُ صَدَاهَا

فلفظة " آه" تحمل الكثير من مشاعر الحسرة والحُرقة التي لا تنفكّ ملازمة لموضوع شعر الحروب والفتن – عصر ملوك الطّوائف– خاصّة فيما يتعلّق بغرض الرّثاء، كرثاء المدن والممالك الزّائلة.

من خلال دراستنا للمعجم الشعري في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف يتبيّن لنا ما تتميز به اللغة العربية من ثراء يُقدُّم خيارات لغوية ومفردات معجمية تبعا لما يمتلكه المبدع من إمكانات معرفية تتيح له اختيار ما يتناسب مع موضوعه، وهذا ما لمسناه في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف الذي شكّل معجمه الشّعري مزيجا من ألفاظ الحرب وألفاظ الحزن والحسرة بالإضافة إلى الألفاظ الدينية التي استمدّها الشّعراء من موروثهم الدّيني، هذا الثّراء المعجمي أخرج شعر الحروب والفتن في أحسن صورة.

المبحث الثاني: التّراكيب النحوية والبلاغية

1- التراكيب النحوية:

أ- الجملة الفعليّة:

من خلال شعر الحروب والفتن الذي تميّز به عصر ملوك الطّوائف فإننا نلاحظ تواجدا ملحوظا للجملة الفعليّة على مستوى التّراكيب النحويّة في العديد من الأبيات الشّعرية.

فقد استخدم شعراء هذا العصر الجمل الفعلية لمواكبة العديد من الأحداث المتقلّبة في عصر ساد فيه نوع من العبثيّة ف استقرار الأمور والفجائيّة في تطورها بسبب الحروب والفتن.

فنجد مثلا الشاعر "ابن اللبانة" يبدأ قصيدته الدالية بجملة فعلية يقول:[1]

تَبْكِي السّمَاءُ بِمُزْنٍ رَائِحٍ غَادِي على البَهَاليل مِنْ أبناء عَبّادِ

فهذه الجملة الفعليّة التي جاءت في قصيدته تدلّ على الحركة والتحوّل الذي طرأ على بني عباد من الملك إلى اللاّ مُلْك ومن الحريّة الى العبوديّة ومن نعيم الوطن إلى جحيم المنفى، ومن المجد إلى السّقوط، وبذلك جسّدت لنا عمق المأساة.

ومن الجمل الفعليّة التي رصدناها في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف نجد الفعل الماضي "بكى" الذي ورد في ذكره أربع مرات في ثلاث أبيات في قصيدة "المعتمد بن عباد" في قوله:[2]

بَكَـى المَبَارَكُ في إثـرِ ابـن عَبّـادِ بَكَى على إَثْرِ غِزْلَانٍ وآسَادِ

بَكَـتْ ثُرَيَّاه لا غُمّـتْ كَواكِبُهَـا بِمِثْلِ نُوءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الغَـادِي

بَكَى الوحِيدَ ، بَكَى الزَّاهِي وقُبّتُهُ والنّهرُ و التّاجُ كُلٌّ ذلُّهُ بَـادِي

---

[1]- ابن اللبانة : الديوان ، ص.77

[2]- السعيد محمد مجيد : شعر ابن اللبانة الداني ، منشورات جامعة البصرة 1977 ، ص .40

فتكرار الفعل الماضي "بكى" إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على مدى تأثّر الشّاعر وقصوره المبارك، التّرياّ والزّاهي على ما حلّ بهم من تقلّب الحال بسبب الحروب التي شهدتها الأندلس في عصر ملوك الطّوائف وقد ترجم لواعج نفسه ومرارة ما أحسّه بالبكاء.

أما الشّاعر " ابن عبدون " فقد وظّف الجملة الفعليّة في رثائه لآل عبّاد حيث قال:[1]

كَانُوا رَواسِيَ أرْضَ الله مُنْـذُ مَضُـوا عَنْهَا اسْتَطَارتْ بِمَنْ فِيهَا ولم تقـر

كَانُوا مَصَابِيحُهَا فَمُنْذُ خَبُو عَثَـرَتْ هَـذِي الخَلِيقَـةُ بالله فـي سَـدَرِ

كَانُوا شَجَرَ الدّهْرِ فاسْتَهْوَتْهُمْ ضرع منه بِأحْلامِ عَادٍ في خُطَى الحَضْرِ

فالجمل الفعليّة التي ابتدأها الشّاعر بالفعل الماضي النّاقص "كانوا" بشكل متتابع ثلاث مرات تنهض بوظيفتين: الأولى زمنيّة تتمثّل بوضع المتلقي في إطار زمني محدد لاستقباله الخطاب الشعري وبالتّالي قدرته على تحديد الحقبة الزمنيّة أو الزّمن المراد الحديث عنه مشيرا بذلك إلى الزّمن الماضي، والثانيّة دلاليّة تتمثّل في تعداد جوانب الصّورة الرّثائيّة في ذكر المناقب الحميدة والرّفع من شأن المرثيّين من آل عبّاد، والتّعبير عن مدى الحزن والألم الذي أحسّ به من خلال تعداد مناقبهم وذكر ما كانوا عليه من عزّ وشرف، وهذا انسجاما مع أحد مقوّمات المرثاة العربية.

ويقول ايضا:[2]

ومَزّقَـتْ سبأ في كُـلّ قَـاصِيّةٍ فَمَـا ألْتَقَى رَائِحٌ مِنْهَـا بِمُبْتَكَـرِ

ودَوَّخَتْ آلَ ذُبْيَانَ وإخْوتَهُـمْ عَبْسًا وغَضّتْ بني بَدْرٍ على النَّهْرِ

وأرْدَتْ ابن زيّادٍ بالحسن فلم يَبُوءُ بِشَسْعٍ لـه قَدْ طَاحَ أو ظَفَـرِ

ورَوَّعَتْ كُـلَّ مَـأمُونٍ ومُؤْتَمَـنٍ وأسْلَمَتْ كُلّ مَنْصُـورٍ ومُنْتَصِـرِ

وأعْثَرَتْ آل عبّاسَ لِقَائَـهُـمْ بِذِيـلِ رِيَّـاءٍ مِنْ بِيضٍ ومِنْ سُمُـرِ

[1]- ابن عبدون: الديوان، ص .143

[2]- المصدر نفسه، ص.147

فقد تصدّر الأبيات بحشدٍ من الأفعال الدّالة على الزمن الماضي فقوله مزقت، دوخت، روّعت، اعثرت تحمّل دلالات السّقوط والتّمزيق والتّدويخ والقتل والخوف وهي دلالات تنسجم مع شعر الحروب وهذا يعني أن الشّاعر رهين الإحساس الذي استهلّ به أبياته وهو يستحضر الوقائع والأحداث التّاريخية، فاسقط عليها إحساسه إذ لم يقدّم لنا الأحداث تقديما تاريخيا محايدا فقد حملت دلالات الأفعال التي تصدّرت الأبيات رأيا شخصيا بتلك الأحداث.

ب– الجملة الإسمية:

الجملة الاسمية وهي التي لا تشمل على الفعل، ويغلب أن يكون المسند إليه فيها اسما والمسند وصفا.[1]

ومن خلال شعر الحروب والفتن الذي تميّز به عصر ملوك الطّوائف نجد ورود الجملة الإسمية بشكل متفاوت من شاعر إلى آخر، ومن أمثلة الجملة الإسمية قول الشاعر "أبو إسحاق الألبيري" في قصيدته المناهضة لليهود إذ يقول:[2]

أَلَا قُلْ لِصَنْهَاجَةَ أجْمَعِينَ بُدورُ النَّدَى وأُسْدُ العَرِينِ

فالجمل الإسمية تتمثّل في "بدور الندى" و"أسد العرين" فالشّاعر من خلالها يمدح أهل صنهاجة ويخبرنا بأنّهم بدور النّدى وأنّهم مثل الأسود في الشّجاعة والقوّة.

وهناك تكرار لعناصر الجملة الإسمية في قول الشاعر "ابن شهيد" في رثاء قرطبة:[3]

أيَّـــامَ كَانـتْ عَيـْنُ كُـلّ كَرَامَـةٍ مِنْ كُلِّ ناَحِيّةٍ إليْها تَنْظُـرُ

أيّامَ كَـانَ الأمِيــرُ فيهــا واحِـدًا لأميرهــا وأميــرُ مَنْ يَتَأمَّـرُ

أيّامَ كَانت فيها كنّ فيها سَلاَمَةً سَمُوا عليها بالسَّلاَمِ وتَبْدُرُ

[1]– ابراهيم أنيس: من أسرار البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر ط 4، 1974، ص 218.

[2]– إسحاق الالبيري:الديوان ، ص .

[3]– ابن شهيد: الديوان، ص 193.

إنّ تكرار "إبن شهيد" لذكر الأيّام يومي عن عمق الأثر الذي نجم عن زوال ذلك العهد، وتكرار الجملة الإسمية (أيّام كانت) يحمل دلالة زمنية ممّا يقضي بتبدلّها وتغيّر الأحوال، وذلك لأنّ الزّمان متغير لا يمكن الوقوف عليه وخاصّة أنّ الأيّام قد ارتبطت بالفعل الماضي النّاقص كان.

ج- كم الخبريّة "التي تفيد معنى التكثير":

تأثرّ الشّاعر الأندلسي في عصر ملوك الطّوائف بالنّكبة التي حلّت ببلدهم وسقوط مدنهم، ممّا جعل أقلامهم تكتب من الشّعر الحزين ما يُدمي القلوب ويسكب الدموع، فكان شعر الحروب والفتن بمثابة المتنفّس لهم، فالشّاعر منهم استطاع وصف العديد من المظاهر التي كانت مؤسّيّة واحتلّت موقعا بارزا وظاهرا في مخيّلته، ولكنّه في المقابل استخدم صورة تعبيريّة تجعل القارئ يطلق عنانه في تخيّل حجم المأساة ويشارك الشّاعر آهاته وأحزانه، فكان استخدام الشّعراء لأسلوب التّكثير الذي يفيد المبالغة من الأساليب التي لها علاقة بالجوّ العام للنص وهذا ما نراه واضحا عند أبو إسحاق الألبيري إذ يقول:[1]

وَكَـمْ مِنْ مُجِيبٍ كَـانَ فيهـا لِصَـارِخٍ تُجَابُ إلى جَدْوَى يَدْيه السَّبَاسِبُ

وَكَـمْ مِـنْ نَجِيبٍ أنْجَبَتْـهُ وعَالِـمٍ بِأبِوابِهِـمْ كانت تُتَـاحُ الرَّكَائِـبُ

وَكَمْ بَلَغَتْ فيهـا الأَمَـانِي وقَضِيَتْ كَصَـبٍّ لِبَانَـاتٍ بِهَا مـآربُ

وَكَمْ طَلَعَتْ مْنهَا الشُّمُوسُ وَكَمْ مَشَتْ على الأرْضِ أقْمَارٌ بهـا وَكَواكِبَ

وَكَـمْ فَرَسَـتْ بها الظِّبَـاءُ ضَرَاغِـمًا وَكَمْ صَرَعَتْ فيها الكُمَاةُ كَوَاعِبَ

وهنا تتردّد "كم" الخبريّة في قصيدة "الالبيري" فاستطاع أن يعبّر عن هول المصاب الذي ألمّ بأهل البيرة، ومن خلال تكرار "كم" يُظهر تميّزا واضحا لمدينته ويؤكّد على أفضليتها وتميّزها، خاصّة وأنّ " أبا إسحاق الألبيري " يودّ القول أنّ الذي كان لا يمكن حصره "فكم من مجيب" و"كم من نجيب" و"كم بلغت فيها الأماني" و"كم

[1]- ابو اسحاق الالبيري : الديوان ، ص .71

فرست فيها الظّباء فهو بتعداده هذا يحاول أن يجعل القارئ يطلق عنانه في تخيل المأساة وحجم النّكبة التي حلّت بالبلاد الاسلاميّة التي داهمتها الحروب وعاث فيها الكفّار فسادا يقول ابن درّاج:[1]

وَكَـمْ أظلّ مُقْبِلِـي وسَـطَ جنّتــِـه بِكُــلِّ فـرعٍ حَمَـامُ الأيْـكِ فَارِعُــهُ

وَكَمْ وفيّ لِي فِيه مِنْ حَبيبٍ هَوَى خَلَعْـتُ فيـه عِـذَارَى فَـهُو خَالِعَهُ

وَكَمْ صَدَعَتْ فُؤَادَ اللّيلِ عَنْ قَمرٍ لَهُ هَوَى فِي صَمِيمِ القَلْبِ صَادِعُهُ

وفي هذا التّعداد إلى العجز عن الإحاطة بذكر الذي كان أو حصره فما مضى لا يمكن عدّه.

كما وظّف "ابن اللبانة" كم الخبريّة في قصيدته الدّالية:[2]

كَمْ سَالَ فِي الماءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلْتْ تِلْكَ القَطَائِعُ مِنْ قطعَاتِ أكْبَادِ

فالشّاعر هنا يحاول تصوير غزارة الدّموع بتوظيفه "كم الخبرية" التي توحي بمقدار غير محدود للدّموع التي سالت حزنا على آل عباد.

وفي سرد تاريخي ملحمي نجد "ابن عبدون" يبدأ سرده التاريخ مستخدما "كم الخبرية" إذْ يقول:[3]

كَمْ دولةٍ ولِّيْتُ بالنّصْرِ خَدَمْتُهَا لَمْ تَبْقَ مِنْهَا وسَلْ دُنْيَاكَ عَنْ خَبَرِ

وفي كلامه هذا إشارة لكثرة الدّول التي سقطت بين أيدي الأعداء وتوظيفه لكم الخبريّة التي تفيد الكثرة غاية معيّنة وهو تقديم حشد من المعلومات التاريخيّة عن دوّل سقطت وإفادة المتلقّي بأكبر عدد من ممكن من الوقائع والأخبار والأحداث.

وفي مقطوعة شعريّة يشنّ "السّميسر" حربا شعواء على ملوك الطّوائف، حيث الهوان والضّعف والمراتب السفلى وفقدان الهمّة كيف لا و"السّميسر" من أشهر الشّعراء الذي عُرِفَ بمقطوعاته الشعريّة النّاقدة للملوك فيصفهم قائلا:[4]

---

[1]- ابن الدرّاج: الديوان، ص 138، 193.

[2]- فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الاندلس عصر ملوك الطوائف، ص 144.

[3]- ابن عبدون : الديوان ،ص 140 .

[4]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 885.

خُنْتُمْ فَهُنْتُمْ وَكَمْ هُنْتُمْ زَمَان كُنْتُمْ بِلاَ عُيُون

وبتوظيفه "كم الخبرية" إشارة واضحة لكثرة الذّل والهوان حتى أصبح الذّل والهوان سمة متأصّلة فيهم.

ويأتي صوت الشّاعر الفقيه "ابن العسال" مدويّا في الآفاق مبيّنا عمق المأساة وحجم الكارثة التي حلّت بـ (بربشر) وقامت "كم الخبرية" بتصوير كثرة الأماكن التي استولى عليها الأعداء وكثرة الامهات اللّواتي قُتِلن تاركات أطفالهن يصرخون يقول:[1]

كَمْ مَوضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِهِ طِفْلٌ ولاَ شِيخٌ ولاَ عَذْرَاءُ

وكَـمْ رَضِيـــــعٍ فَرَّقُوا مِنْ أمّـه فَلَـهُ إلَيْهَـا ضَجّةٌ وبَغَـــاءُ

ونلاحظ ممّا سبق أنّ شيوع كم الخبرية التي تفيد التكثير في شعر الحروب والفتن يعود لكثرة المصائب التي حلّت ببلاد الأندلس من قتل وتنكيل ودمار وتخريب، ولعلّ في تعداد الشّعراء لتلك النّكبات والمصائب ما يخفّف عنهم حدّة ذلك الاشتعال الدّاخلي.

2- التراكيب البلاغية:

أ- الأساليب الإنشائية:

❖ النداء:

يعتبر من أهمّ الأساليب الإنشائية، ويستخدم بهدف تنبيه المدعو لتلبية النّداء باستخدام العديد من الأدوات تنوب جميعها مكان الفعل (أنادي) أو (أدعو).

وقد لجأ الشعراء في عصر ملوك الطوائف إلى استخدام هذا الأسلوب بكثرة بسبب الظروف القاسيّة والمريرة التي تعرّضت إليها المدن الإسلاميّة بسبب الحروب وكثرة الفتن، فكانت الحاجة للشعر ملحّة لإنقاذهم مما حلّ بهم، فنظم الشعراء الكثير من القصائد ووظّفوا أساليب النّداء المخصّصة للقريب والبعيد دائما لاستحضار المنادى، وجعله يقع دائما في منزلة القريب. وقد ظهر هذا واضحا في أغراض الاستصراخ واستنهاض الهمم والدّعوة

[1]- فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص 196.

إلى الجهاد ورثاء المدن، والهجاء... ومن هذا الشّعر قول الشّاعر "ابن شهيد" الذي وظّف أسلوب النّداء لتحقيق غاية ذات قيمة في العمل الأدبي، يقول متوجّها بالخطاب إلى المدينة المنكوبة:[1]

جَنَّةً عَصَفَتْ بِهَا وَ بِأَهْلِهَا رِيحُ النَّوَى فَتَدَمَّرَتْ وَ تَدَمَّرُوا

يَا مَنْزِلًا نَزَلَتْ بِهِ وَ بِأَهْلِـهَ طَيْرُ النَّوَى فَتَغَيَّرُوا وَ تَنَكَّرُوا

إنّ استخدام "ابن شهيد" لأداة النداء (يا) قد يومي إلى البعد الزّماني أو المكاني، فهو يخاطب آثار المدينة بعد تدميرها بلفظة "يا جنّة"، وهذه الجنّة غدت بعيدة المنال على أرض الواقع الذي محا معالمها بما جرّته عليها يد الزمن، فالمنادى يكمن في الذاكرة على بعد زماني وإن بدت آثاره للعين، وقد ظهر المنادى نكرة ولعلّ لذلك بعدا نفسيا يتمثّل فيما يبدو للعين من آثار تستسيغ الذاكرة مقابلته بما ارتبط به من صور مختزنة في الماضي.

ومن أساليب النّداء نجد أيضا قول الشّاعر " السّميسر":[2]

فَقُلْتُ يَا زَهْرَاءُ أَلَا فَارْجِعِي قَالَتْ: وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا ؟

وفي هذا البيت يقف الشّاعر في مواجهة آثار الزهراء ويناديها: ألا فارجعي، فهو على الرغم بوجوده ووقوفه على آثار المدينة المرثيّة إلا أنّه يحّس بالبعد الزماني والمكاني في الآن نفسه وذلك لأنّ الشّاعر عند رثائه للمدينة يشعر برحيلها أو لنقل موتها، وأيّ شيء أبعد من الميّت وإن كان جثمانه بين أيدينا فهو بمثابة الحاضر الغائب.

وكما هو معلوم توالت انكسارات ونكبات الأندلس وتوالى سقوط مدنها الواحدة تلو الأخرى، ومن بين الشّعراء الذين كانت صرختهم مدويّة عند سقوط (طليطلة) نجد "ابن العسال" مناديا مستصرخا أهل الأندلس:[3]

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمْ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الْغَلَطِ

---

[1]- ابن شهيد : الديوان ، ص 111.

[2]- المقرّي أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، ص 227.

[3] - محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 172.

وتجدر الإشارة أنّ أسلوب النّداء كثيرا ما ترافق مع غرض الاستصراخ والاستنجاد واستنهاض الهمم والحثّ على الجهاد أثناء الحروب التي شهدتها الأندلس في عصر ملوك الطوائف، فابن العسال ينادي ويخاطب أهل الأندلس بأن يكونوا على أهبة الاستعداد، وأن الخطر وشيك ويهدد كل الممالك، فلا بد من حشد الهمم وتجهيز العدّة والعتاد من سلاح وفرسان وخيول وجيّاد لمواجهة العدوّ وأيدي النّصارى.

ويقول "ابن اللبانة":[1]

يَا ضَيْفُ أَقْفرَ بَيْتَ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فُضْلَـةَ الـزَّادِ

وَيَا مُـــؤَمَّلُ وَادِيهِـــمْ لِتَسْكُنَـــهُ خَفَّ الْقَطِينُ وَ جَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي

وَأَنْتَ يَـا فَـارِسَ الْخَيْلِ الَّتِي جَعَلَتْ تَخْتَـــالُ فِي عَـدَدٍ مِنْهُـمْ وَأَعْـــدَادِ

فاستعمال الشّاعر للأمر كان بغرض الكشف عن النتيجة التي آلت إليها مملكة بني عبّاد، فقد كانت بيتا للمكرمات ومنزلا لطلاّب الخير والأرزاق، وميدانا للفرسان والأبطال، ولكنّها أضحت بيتا مقفرا ومكانا قاحلا وميدانا للأعداء. وتوظيفه حرف النداء (يا) الذي يفيد نداء البعيد للدّلالة على غياب المنادى الضيوف والقصّاد والفرسان بعد هزيمة و غياب آل عبّاد.

ومن الشّعراء الذين بكوا المعتمد ومملكته بدموع ساخنة الشّاعر "ابن عبد الصمد" الذي تعتبر قصائده نموذجا للرّثاء الصّادق، فهو صديق "المعتمد" الذي رافقه حيًّا ورثاه ميّتا حيث يتوسّله قائلا:[2]

يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ أَهَكَذَا يُمْحَى ضِيَاءُ النّيِّرِ الْوَقَّادِ؟

فهو يحاول أن يصوّر عظمة المرثي فهو كالقمر رفيع الشّأن عظيم القدر وهذا دليل على الصّورة المشرقة التي يحملها الشاعر في وجدانه.

[1] – السعيد محمد مجيد : شعر ابن اللبانة ، ص 40 ، 41.

[2]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 143.

ونجد أسلوب النّداء بشكل متكرّر بما يوحي بشكل من أشكال النّدب المرافق لنفس أرهقتها الحروب والفتن والتناحر والصّراعات والظّروف السياسيّة المترديّة بالأندلس، فهذا "ابن حزم" يخاطب الدّار حيناً ويخاطب الهمّ و الشّجو والوجد والبيْن حينا آخر، ويخاطب الدّهر والعهد والدّمع والسّقم يقول:[1]

فَيَــا دَارُ لَمْ يَقْفِـرْكِ مِنّـا اخْتِيَارُنَا وَلَـوْ أَنَّنَـا نَسْتَطِيـعُ كُنْتِ لَنَا قَبْـرًا

وَيَا هَـمُّ مَا أَعْدَى وَيَا شُجُوَّ مَا أَبَرّا وَيَا وُجْدُ مَا أَشْجَى وَيَا بَيْنُ مَا أَفْرَا

وَيَا دَهْرُ لَا تَبْعُدْ وَيَا عَهْدُ لَا تَحُـلْ وَيَا دَمْعُ لَا تَجْمُدْ وَيَا سَقَـمُ لَا تَبْرَا

وقد ظهرت صورة النّداء بطابع آخر باستخدام أداة النداء (الهمزة) التي لا تستخدم إلاّ للقريب فقط، وظهورها عند شاعر أندلسي تأجّجت مشاعره ودفعته بحرارة لمخاطبة مدينته على الرّغم من البعد المكاني، وفي هذا يتجلّى البعد النفسي الذي يتمثّل في معانقة نفس الشاعر لمدينته وإن ارتحل عنها بسبب ظروف الحرب وويلاتها فهي قريبة إلى قلبه وروحه وكيانه يقول " ابن زيدون " منادياً قرطبة:[2]

أَقُرْطُبَةَ الْغَرَّاءُ هَلْ فِيكِ مَطْمَحُ وَهَلْ كَبِدٌ حَرِيٌّ لِبَيْنِكِ تُنْقَعُ

ونجد الشّاعر "الهوزني" اعتمد في استنجاده واستعطافه حرف النّداء الهمزة يقول:[3]

أَعَبَّادُ حَلَّ الرَّزْءُ وَ الْقَوْمُ هُجَّعُ عَلَى حَالَةٍ مَنْ مِثْلُهَا يُتَوَقَّعُ

وفي موقع آخر يقول:[4]

أَعَبَّادُ ضَاقَ الذَّرْعُ وَاتَّسَعَ الْخَرقُ وَلَا غَرْب لِلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ شَرْقُ

وقد استخدم أداة النداء (الهمزة) للاستنجاد بابن عبّاد واعتباره بمثابة القريب والأخ الذي يستنجد به في الشّدائد والتعبير عن قرب المشاعر والعاطفة منه والإحساس بالوحدة الدينية.

---

[1]- لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام ، ص .107

[2]- المقرّي أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ، ص .483

[3]- المصدر نفسه، ص .89،81

[4]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق 2 ، مج 1 ، ص .167

❖ **الاستفهام:**

وظّف شعراء عصر ملوك الطّوائف أسلوب الاستفهام بشكل كبير، وقد عكس توتّرا وقلقا يستشعره الشّعراء كل يوم من تكرار المحنة أمامهم في كل لحظة، وبالتالي وجدوا أنفسهم في دوامة من التساؤلات، وأضحى الاستفهام وسيلة بحثهم الذّهني عن بوابات الفرج، ومع النظر إلى أدوات الاستفهام التي استعان بها الشعراء، نلاحظ خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان مختلفة بين استنكار وتعجُّب وتَمَنٍّ وتقرير وتهكُّم وسخرية.

وفي معنى الإنكار نجد قول "ابن حمديس" منكرا على أهل المدينة تركهم لأرضهم والاستغناء عنها:[1]

أَعَنْ أَرْضِكُمْ يُغْنِيكُمْ أَرْضُ غَيْرِكُمْ وَكَمْ حَالَة جدَّاء لَمْ تُغْنِ عَنْ أُمِّ ؟

ويقول شاعر أندلسي مجهول في رثاء مدينة (طليطلة)، موظّفا الاستفهام الإنكاري:[2]

كَفَى حُزْناً بِأَنَّ النَّاسَ قَالُوا: إِلَى أَيْنَ التَّحَوُّلُ وَالْمَسِيرُ؟

أَنَتْرُكَ دُورَنَا وَنَفِـرُّ عَنْهَـــا؟ وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ الْبَحْـرِ دُورُ

وهذا الاستفهام الإنكاريُّ قد يقود إلى خضوع الأسى والحزن لما قد يوحي به من انقطاعٍ لأسباب الرّجاء، وكأنّ أفكار أهل (طليطلة) لمواجهة الفقد يقودهم إلى الرّضى بالعبوديّة فخسروا الدين والدنيا.

وقد أنكر "أبو إسحاق الإلبيري" على أهل زمانه من شعراء الأندلس إغفالهم لندب مدينة (إلبيرة) في قوله:[3]

أَتُنْدَبُ أَطْلَالُ الْبِلَادِ؟ وَ لَا يُرَى لِإِلْبِيرَة مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ نَادِبُ

ويحمل هذا الإنكار إشارة قويّة لما تحتله تلك المدينة من مكانة في نفس الشاعر الذي يواجه شعراء زمانه معاتبا ومقرّعا لهم لإغفالهم ندبها، وفي هذا الاستفهام مقدار من الألم والتوجّع والحضّ والاستثارة. وقد نظر أبو إسحاق إلى رثاء مدينته (إلبيرة) على أنه واجب و فرض.

---

[1] – ابن حمديس: الديوان ، ص .417

[2] – محمد رضوان الداية: في الأدب الأدب الأندلسي ، ص .165

[3] – انتصار خليل محمد النجار: المدن الاندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف ، ص .137

وفي مشهد آخر يعدّد " ابن العسال " أسباب الهزيمة بقوله:[1]

فإِنَّا مِثْلُهُمْ وَأَشَــدُّ مِنْهُـمْ نَجُورُ وَ كَيْفَ يَسْلَمُ مَنْ يَجُورُ؟

أَنَأْ مَنُ أَنْ يَحِلَّ بِنَا انْتِقَامٌ؟ وَفِينَــا الْفِسْـقُ أَجْمَعُ وَالْفُجُـورُ

فالشّاعر من خلال قوله (وكيف يسلم) و(أنأمن)، يصوّر استغرابه من سلامة الظّالم ونفيه للأمان من الانتقام كعاقبة العصيان.

ولا يقف "ابن العسال" في قصيدته الرّائية على الاستغراب من خلال استفهامه، بل أنه يتحرّر من استغرابه بعد أن عدّد أسباب سقوط (طليطلة) والمتمثلّة في الابتعاد عن الّدين وتفشّي الجور والفسق والفجور. فمن خلال الأبيات القادمة يحاول تقديم علاج لخلاصها، ويشرع في تصوير أمنيته في قوله:[2]

أَلَا رَجُـلٌ لَـهُ رَأْيٌ أَصِيـلٌ بِــهِ مِمَّــا نُحَـاذِرُ نَسْتَجِيـرُ؟

يَكُـرُّ إِذَا السُّيُوفُ تَنَاوَلَتْهُ وَأَيْــنَ بِنَـا إِذَا وَلَّـتْ كَــرور؟

وَيَطْعَنُ بِالْقَنَا الْخَطَّارِ حَتَّى يَقُولَ الرُّمْحُ: مَنْ هَذَا الْخَطِيرُ؟

فهو يتمنّى قائدا ذا رأي سديد، يبادر لحرب الأعداء وتحرير (طليطلة)، وأمنيته تكشف عن واقع سياسي مرير، يتّسم بغياب الإدارة السياسيّة لتحرير (طليطلة) من براثن العدوّ، فهو من خلال استفهامه يرصد بعض الصّفات التي يتمنّى أن تتوفّر في القائد المتمَنَّى.

وفي قصيدة تُعتبر من أجمل القصائد الأندلسيّة التي تخلدها المكتبة العربية، نجد قصيدة الرّائية "لابن عبدون" والتي يرثي فيها بني الأفطس أو بني المظفّر، حيث شاع فيها أسلوب الاستفهام بشكل ملفت يقول:[3]

مَـنْ لِلَأَسِرَّةِ، أَوْ مَــنْ لِلْأَعِنَّــةِ أَوْ مَنْ لِلْأَسِنَّـةِ يَهْدِيهَا إِلَى الثَّغَــرِ

مَـنْ لِلْيَرَاعَـةِ أَو مَــنْ لِلْبَــرَاعَـةِ أَوْ مَنْ لِلسَّمَاحَةِ، أَوْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ

---

[1]- المقرّي أحمد محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، ص.240

[2]- المصدر نفسه، ص242.

[3]- ابن عبدون: الديوان، ص .148

مَنْ لِلْعِدَى وَ عَوَالِي الْخَطِّ قَدْ عَقَدَتْ أَطْرَاف أَلْسُنِهَا بِالْعِيِّ وَ الْحَصَـرِ

فشيوع الاستفهام في الأبيات المتقدمة يدلّ على توتر نفسي ناجم عن فقدان "بني المظفّر"، فالشّاعر يرمي إلى تصوير مدى الفراغ الذي نجم عن غيابهم، فاستخدم الاستفهام الذي تكرّر سبع مرات والذي من خلاله يحاول تصوير مكانة بني الأفطس.

وتُطْلِعُنَا المصادر التي أرّخت لهذه الحقبة من تاريخ الأندلس المتمثلة في مرحلة ملوك الطوائف التي شهدت أشدّ الحروب والصّراعات على ثلّة من الشّعراء الذين نقموا على أوضاع عصرهم، ومن بينهم "السّميسر" الذي كان لسانه منجنيقا يقذف الحمم الملتهبة في وجه الطّغيان والظّلم، والذين يغرقون في مستنقعات الذّل والهوان منها قوله مخاطبا مستفهما:[1]

نَـادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُـمُ مَاذَا الَّذِي أَحْدَثْتُـمْ؟

أَسْلَمْتُمْ الْإِسْلاَمَ فِـي أَسْـرِ الْعِدَا وَقَعَـدْتُـمْ

فهو يسأل ويتساءل ما الذي فعله الملوك ببلادهم، فهو في حالة توبيخ لهم ممّا فعله بدولتهم وكيف أنّهم أذّلوا رايّة الإسلام وأسلموها للعدا فهو ينتقدهم بشكل لاذع.

أما "ابن شهيد" فيقول:[2]

ماَ فِي الطُّلُولِ مِنَ الْأَحِبَّةِ مُخْبِـــرُ فَمَنِ الَّذِي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِـــرُ؟

ففي هذا البيت يقف الشاعر في حيرة كبرى بعد الدمار والخراب الذي لحق قرطبة من جرّاء الحرب والفتنة البربرية، فمن يسأل عن حالها ويستخبر منه عن أخبارها بعدما غادرها أهلها وخلت من سكّانها.

ومن الشّعراء الذين وظّفوا الاستفهام ، وإن كنّا نعني هنا بالاستفهام الاستفهام الذي خرج عن معناه الحقيقي ليؤدّي وظائف بلاغية للكشف عن الانفعالات النفسية التي تمور في أعماق المبدع الذي يلجأ إلى أسلوب

[1]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق1 ، مج 2، ص .374

[2]- ابن شهيد: الديوان، ص.76

الاستفهام في شعره إلى معان عدة، ففي قول " المعتمد بن عباد":[1]

دَعَا لِي بِالْبَقَاءِ وَكَيْفَ يَهْوَى أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ الْبَقَاءُ؟

وقول " ابن العسال ":[2]

لِثَكْلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُــورُ؟ سُرُورًا بَعْدَمَا بَئِسَتْ ثُغُــورُ

ففي البيت الأوّل خرج الاستفهام بـ"كيف" إلى التعجّب والاستغراب، فالشّاعر يتعجّب ممّن دعا له بطول الحياة وهو مقيّد في الأسر، وفي البيت الثّاني يستغرب ممّن يرسمون الابتسامة على ثغورهم بعدما سلبت منهم مدينة (طليطلة)، وضاعت كما ضاع غيرها من المدن الأندلسية، فحريّ بهم أن يحزنوا على ما ضاع من ملكهم.

ففي البيتين نجد تقدّم سبب الاستغراب على الاستغراب، فقد ذكر الشّاعر "المعتمد بن عباد" سبب استغرابه في قوله: "دعا لي بالبقاء" كذلك هو الحال بالنّسبة لقول الشّاعر "ابن العسال" بقوله: "لثكلك"، فتقدُّمُ السّبب أو المثير على أسلوب الاستفهام يضع المتلقّي في حالة وجدانيّة لتلقّي مضمون الاستفهام.

أما في قول "السّميسر الإلبيري":[3]

فَقُلْتُ يَا زَهْرَا أَلَا فَارْجِعِــي قَالَتْ: وَ هَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَــا؟

خرج الاستفهام بـ"هل" إلى معنى النّفي، إذْ ينفي فكرة أن يكون للميت عودة للحياة، ففي كلامه نفي واستغراب وتأكيد لحقيقة استحالة عودة الميّت للحياة من جديد.

وفي قول "ابن زيدون":[4]

أَقُرْطُبَـةُ الْغَرَّاءُ هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ؟ وَهَــلْ كَبِـدُ حرّى لِبَيْنِكِ تُنْقَــعُ؟

وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجِــعُ؟ إِذِ الْحُسْنُ مَرْأَى فِيكِ وَاللَّهْـوُ مَسْمَـعُ

---

[1]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق1 ، مج 2، ص .222

[2]- محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص .164

[3]- المقرّي أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب ، ص .527

[4]- ابن زيدون: الديوان ، ص.150

أفاد الاستفهام بـ"هل" تحسّر"ابن زيدون" على قرطبة فهو يتساءل متحسّرا هل هناك فرصة للعودة إليها والتجوال في مرابعها؟ وهل من الممكن أن تعود ليالي السّهر والسّمر تحت سمائها؟ فروح الشّاعر تنقل بعدا نفسيّا يتمثّل في رغبة الشّاعر بمعانقة مدينته وإن ارتحل عنها مكرها بسبب الحرب وقساوة الحياة فيها.

وقد يخرج أسلوب الاستفهام إلى معنى التمنّي يقول "ابن زيدون":[1]

أَلَا هَلْ إِلَى الزَّهْـرَاءِ أَوْبَةُ نَـــازِحٍ تَقَضَّ تَنَائِيهَـا مَدَامِعَهُ نَزْحًـا

فـ" ابن زيدون " يتمنّى الحلول في الزّهراء التي أصبح من الصّعب زيارتها، فيبثّ أمنياته من خلال أسلوب الاستفهام الذي يوحي بصعوبة بلوغ ما يتمنّاه، فطرحه لهذا السؤال يقود إلى القول بأن الأمور قد خرجت عن إرادته وقدرته، فالنّفس تحِنّ والواقع يقيّد بسبب الحروب والفتن وتناحر ملوك الطّوائف فيما بينهم وانشغال حكّامها بالتنافس على السّيادة.

وبما أنّ الشّعر الذي يدور حول الحروب والفتن يتّخذ من المدن التي سقطت من المحاور الأساسيّة في خطابهم الشّعري، لما يحمله الشّاعر من ألم وحسرة وأسف على وطن فقده وأرض سُلِبت منه وحرب خلّفت الدّمار والخراب، وعليه فتردّد التّساؤلات وورود اسم الاستفهام (أين) بين ثنايا شعرهم أمر متوقّع ومن أمثلة ذلك قول "ابن حزم":[2]

أَيْنَ أَقْصَى الْغَرْبِ مِنْ أَرْضِ حَلَبٍ أَمَلٌ فِي الْغَرْبِ مَوْصُولُ التَّعَبِ

وفي قول "ابن عبدون":[3]

أَيْنَ الْإِبَاءُ الَّذِي أَرْسَوْا قَوَاعِدَهُ عَلَى دَعَائِمَ مِنْ عِزٍّ وَ مِنْ ظَفَرٍ

أَيْنَ الْوَفَاءُ الَّذِي أَضْفَوْا شَرَائِعَهُ فَلَـمْ يردْ أَحَدٌ مِنْهَا عَلَى كَـدَرٍ

[1]- المصدر نفسه، ص.417

[2]- فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص .210

[3]- ابن عبدون: الديوان، ص .150

أفاد الاستفهام بـ"أين" تحسّر "ابن عبدون" على من رحلوا، فهو يتساءل متحسّرا على المثل العليا (الإباء والوفاء) التي تحلّى بها الرّاحلون، وإذا كان الشّاعر قد استخدم الاستفهام بـ (أين) لتصوير حسرته فقد توسّل به فنيّا لتعداد مناقب من رثاهم من بني المظفّر، والتّعداد بواسطة الاستفهام أكثر من التعداد المجرّد.

ويقول " أبو الحزم بن جهور":[1]

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانَــوا أَيْنَ سُكَّانُكِ الْعِزَازُ عَلَيْنَــا؟

فاستعمال شعراء الأندلس في عصر ملوك الطّوائف لأداة الاستفهام "أين" يعكس قلقهم من الزّمن وخوفهم من المستقبل ووقوعهم تحت سطوة الماضي، ومحاولة التّواصل بين الماضي والحاضر، ولو كان فقط بأخذ العبرة. والأمر نفسه في قول "أبي إسحاق الإلبيري":[2]

عَجِبْتُ مَا أَدْرِي بِهَا مِنْ عَجِيبَـةٍ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ تِلْكَ الْعَجَائِبُ

وَمَــا فَعَلَتْ أَعْلَامُهَـــا وَفِئَامُهَـا وَأَرَامُهَــا أَمْ أَيْــنَ تِــلْكَ الْمَـرَاتِبُ

وَأَيْنَ بِحَارُ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالنَّـدَى وَأَيْنَ الْأَكُـفُّ الْهَامِيَّاتُ السَّوَاكِـبُ

تتزاحم الصّور أمام ناظريْ الشّاعر، معبّرا عن شدّة الحزن والألم لما لحق بمدينته وأهلها من إبادة وشتات مؤكّدا على أنّ أهل مدينته خالدون بأفعالهم و مناقبهم.

إنّ شيوع أسلوب الاستفهام في شعر الحروب والفتن والأغراض التي خرج إليها يعبّر عن ذلك الصّراع الدّاخلي الذي يعتمل في نفس الشّاعر الأندلسي في عصر ملوك الطّوائف، الذي شهد أشدّ الصراعات والحروب والفتن والنّكبات والاضطرابات التّي أثّرت بشكل خاص على نفسيّة الشّعراء الذين أسالوا الكثير من الحبر للتّعبير عن مدى تأثّرهم بالنّكبة التي ألمت ببلادهم، حيث أن الشّاعر منهم يبرز من خلال بعض السّمات الأسلوبيّة المعبّرة عن تفجّر شعوري يتدفّق من خلال الحوار المبتور أحيانا . من خلال الاستفهام ، إذْ قد يطرح السّؤال فلا تسمع الإجابة ممّا يضيف للنّص بعدا نفسيا في ذهن المتلقّي.

---

[1]- انتصار خليل محمد النجار: المدن الاندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف، ص 139.

[2]- إسحاق الالبيري: ديوان حققه وقدم له محمد رضوان الداية، بيروت مؤسسة الرسالة، ، 1976، ص.128

❖ **الأمر:**

ومعناه طلب فعل شيء وله صيغتان، صيغة فعل الأمر الصّريح وصيغة لام الطّلب الجازمة المختصّة بالدّخول على المضارع وهذه ملحقة بذلك وتسمى لام الأمر.

والأمر أسلوب إنشائي اعتمده شعراء عصر ملوك الطّوائف في قصائدهم بغرض التّعبير عن معان شتى كالتّوجيه والحضّ على الجهاد...إلخ

ومن أمثلة ذلك قول " أبو إسحاق الإلبيري " في نونيّته المناهضة لليهود:[1]

أَلَا قُلْ لِصنْهَاجَةَ أَجْمَعِين بدر النَّدَى وَ أسدِ الْعَرِينِ

ويتجلّى الأمر في فعل الأمر (قُلْ).

وكذلك ورد الأمر في البيت الشعري:[2]

فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُمْ خَادِمًا وَدَرْهُمْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّاعِنِين

ويتجلّى في قوله (دَرْهُمْ).

كما ورد فعل الأمر (تَأَمَّلْ) في قوله:[3]

تَأَمَّلْ بِعَيْنَيْكَ أَكْثَرَهَا تَجِدُهُمْ كِلَابًا بِهَا خَاسِئِينَ.

أما ابن اللبانة فيقول:[4]

يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ المِكْرُمَاتِ فَخُذْ فِي ضَمِّ رَحْلِكِ واجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ

أَلْقِ السَّلَاحَ وخَلِّ المِشْرَفِي فَقَدْ أَصْبَحَتِ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغَمِ العَادِي

وهنا الشّاعر يدعو من الضّيوف والقصّاد للرّحيل لأنّ بعد آل عبّاد لا مكان للضّيوف من بعدهم ويدعو الفرسان لإلقاء السّلاح لأنه لم يعد للأبطال مكان بعد رحيل آل عبّاد.

---

[1]- إسحاث الإيلبيري: الديوان، ص150.

[2]- المصدر نفسه، ص 130.

[3]- المصدر نفسه، ص 130.

[4]- شعر ابن اللبانة: جمع وتحقيق د . محمد مجيد السعيد ، جامعة بيروت 1977 ، ص 40، 40.

❖ **النّهي:**

النّهي ضد الأمر وهو طلب الكف عن الفعل، ومن ثم يقع في قبيل الكبح وأداة النهي هي لا الناهية[1] وقد ورد النهي في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف في العديد من القصائد ومن أمثلة ذلك نجد قول "أبو إسحاق الالبيري":[2]

فَلاَ تَتّخِذْ مَنْهُمْ خَادِمًا وذَرْهُمْ إلى لَعْنَةِ اللاّعِنِينَ

فقد جاء النّهي في قوله "فلا تتخذ منهم خادما "

3- الصورة الفنية:

عندما ينسج الشّاعر أبياته وتنساب الكلمات في بوثقة الشّعر الذي يعبر عن افكاره تبرز في هذا النسيج صور فنيّة تأخذ الإنسان إلى العالم الذي يكون الشّاعر بغرض الحديث عنه.

وقد حظيت الصّورة الفنيّة بجماليتها بحضور متميّز في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطّوائف ولعلّ مردّ ذلك يعود إلى الواقع وما يتركه من تأثير في نفس الشّاعر.

والصّورة الفنيّة " تركيبة عقليّة تنتمي في جوهرها الى عالم الفكرة أكثر من انتمائها الى عالم الواقع حسب الدّكتور عز الدين اسماعيل"[3] وتمثّل عند جابر عصفور"الجوهر الثّابت والدّائم في الشّعر"[4] لأنّ أهميتّها تنبع – في نظره – من طريقتها الخاصّة في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقّي.

وتتشكّل الصّورة الفنيّة في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف من عدّة عناصر تناغمت لتكوّن الصّورة الكليّة لهذا الشّعر وهذه العناصر هي: الاستعارة، الكناية، التّشبيه.

---

[1]- حسان تمام، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، نشر وتوزيع وطباعة، ط1، د.ت، ص141.

[2]- ابو اسحاق الالبيري، الديوان، ص .222

[3]- الدكتور عز الدين اسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط4، 1981، ص.66

[4]- جابر عصفور: الصورة الفنية في التوراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1983.، ص.7

❖ **الاستعارة:**

تعدّ الاستعارة من أهمّ وسائل تشكيل الصّورة الفنيّة وهي تشارك التّشبيه في رسم معالم هذه الصورة ،غير أنّها أقوى وأعمق إيحاءا من التّشبيه، فقد عرفها الجاحظ بقوله " الاستعارة تسمية الشيء باسم غيرها اذا قام مقامه"[1] وهذا "ارسطو" يميّزها عن باقي الأساليب بالتّشريف يقول "ولكن أعظم الأساليب حقاّ هو أسلوب الاستعارة وهو آية الموهبة "[2]

وقد حظيت بالتّشريف نظرا لكونها تمنح النّص ثراءا في المعنى، بالإضافة إلى ما تحدثه من تغيير أو خلخلة لمعطيات الواقع فإنّك لترى حقّا الجماد ناطقا والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينة"[3]

فهذا "المعتمد ابن عباد" يرتفع بالمادي ليصل الى مستوى الأحياء في الحركة والسّلوك في صورة استعارية جميلة وهذا في قوله:[4]

وتَنْدُبُهُ البِيْضُ الصّوارِمُ والقَنَا ويَنْهَلُ دَمْعُ بَيْنِهِنَّ غَزِيرُ

فالسّيوف والرّماح نساء يَنْدُبْنَ، فقد تحولت المسمّيات الماديّة (السّيوف والرّماح) إلى كائن حيّ في الحركة والسّلوك فقد حذف المشبّه به وهو النّساء وأبقى على قرينة دالة وهو فعل النّدب.

والأمر نفسه عند "ابن اللبانة":[5]

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غادٍ عَلَى البَهَالِيلَ مِنْ أبْنَاءِ عَبَّادِ

فقد شبّه السّماء بامرأة تبكي فحذف المشبّه به وهي المرأة وأبقى على قرينة دالة عليها وهو فعل البكاء على سبيل الاستعارة.

اما "ابن زيدون" في التماسه الرّحمة من الكائنات المحيطة به يقول:[6]

---

[1]- عبد العزيز عتيق: علم البيان، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص.73

[2]- محمد الوافي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي، 1998، ص.7

[3]- عبد القاهر الجوجاني: أسرار البلاغة، ص.37

[4]- فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الاندلس عصر ملوك الطوائف ، ص .237

[5]- المرجع نفسه، ص.239

[6]- ابن زيدون: الديوان، ص.43

أَلَمْ يَإِن أنْ يَبْكِي الغَمامُ عَلَى مِثْلِي ويَطْلُبُ ثَأْرِي البَرْقُ مُنْصَلِتَ النّصْلِ

وهَـلاَّ أقَامَـتْ أنْجُمُ اللّيْلِ مَأْتَمَـــــا لِتَنْدُبَ فِي الآفَـاقِ مَا ضَاعَ مِنْ نتلِي

وفي نفس السّياق يقول " ابن عمّار":[1]

عليّ وإلاَّ مضـا بُكَاءُ الغَمَائِـمُ ؟ وفيَّ وإلاّ مـاَ نِيّـاحُ الحَمَائِـمُ ؟

وعَنِّي أَنَارَ الرَّعْدُ صَرْخَةَ طَالِبٍ لِثَأْرٍ وهَزِّ البَرْقِ صَفْحَةَ صَارِمٍ

ومَا لَبِسَتْ زَهْرُ النُّجُومِ حِدَادَهَا لِغَيْرِي ولاَ قَامَتْ لَهُ فِيّ مآتـم

فكل من "ابن زيدون" و "ابن عمّار" قاما بتشخيص الكائنات واسقط الرّوح والحياة على الجمادات فا لغمائم تبكي على ما حلّ بهما والبرق والرّعد يطالبان بالثأّر بحقّهما المهضوم في فترة الحروب والفتن وتعرّضهما للسّجن، امّا بنجوم اللّيل فقد أقامت المآتما ولبست ثوب الحداد حزنا على ما أصابهما.

وفي صورة استعاريّة رائعة يشتكي فيها "المعتمد" إلى قيده ويقول:[2]

قَيْدِي أَمَا تَعْلَمُنِي مُسْلِمًا أَبَيْـتَ أنْ تُشْفِقَ وتَرْحَمَـــا

دَمِي شَرابٌ لَكَ واللَّحْمُ قَدْ أَكَلْتَهُ لاَ تُهَشّمْ الأَعْظمَا

فالشّاعر هنا يشكوا إلى القيد ما يعاينه والتمس منه الرّحمة والشفقة، فقد جعلته الوحدة في سجنه يبحث عن رفيق يناجيه ويبثّه آلامه وإن كان ذاك الرّفيق هو ذاته سبب آلامه وشقائه، فقد شبّه ذلك القيد بإنسان يتغدّى ويأكل من لحمه ويشرب من دمه فحذف المشبه به وهو الإنسان أو الحيوان وأبقى على قرينة دالة وهو فعل الأكل والشرب

أمّا "ابن زيدون" اعتمد على الاستعارة التّمثيليّة في افتخاره بنفسه ومحاولة إبداء الصّبر والتّجلّد أمام أعدائه يقول:[3]

[1]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص.372

[2]- المصدر نفسه، ص.73

[3]- ابن زيدون : الديون، ص.83

يَلْبُدُ الوردُ السَّبَنْـــتِي ولهُ بَعْـدُ افتـــراسُ

فَتأَمّلْ كَيْفَ يَغْشَـــى مُقْلَةَ المِجْدِ النُّعَاسُ؟

ويُفَتَّ المِسْكَ فِي التُّرَ بِ فَيُوَطَّا ويُـدَاسُ

لقد جعل الشّاعر مثاله وقد حُبس ونُكب كمثال الأسد الضّاري الذي يلبد بفريسته، وكمثال المجد الذي يعتري مقلته النّعاس وأنّ إهانة الشّاعر وإذلاله كإلقاء المسك النّفيس في التراب لتدوسه الأقدام.

ومنه فقد ساهمت الاستعارة في إطراء المعنى، وإعطائه إيحاءا دلاليا واسعا لما تعطيه الاستعارة من تغيير وخلخلة لمعطيات الواقع.

❖ **التّشبيه:**

لغة هو التّمثيل ولمماثلة، والتّشبيه في الاصطلاح "هي صورة تقوم على تمثيل شيء حسّي أو مجرّد بشيء آخر حسّي أو مجّرد لاشتراكهما في صفة حسّيّة أو مجرّدة أو أكثر.[1]

وقد لعب التّشبيه دورا هامّا في تشكيل الصّورة الفنيّة في شعر الحروب والفتن لدى شعراء ملوك الطّوائف، ومن أمثلة التّشبيه قول "ابن اللبانة":[2]

سَارَتْ سَفائِنهُمْ و النُّوحُ يَتْبَعُهَا كَأنَّهَا إبِلُ يَحْدُو بِهَا الحَادِي

وهو عبارة عن تشبيه تمثيلي، فقد صوّر "ابن اللبانة" السّفن التي حملت "آل عبّاد" ونوح وبكاء المودّعين يتبعها بالإبل التي يواكبها صوت الحادي الذي يوجّهها، وإذا كان الشّاعر قدُ وفِّقَ في اختيار العنصر الحركي حركة السّفن في النهر وحركة الإبل في الصّحراء إلا أنه لم يُوفّق في اختيار العنصر الصّوتي (النّوح و صوت الحادي) لأنّ المستوى النّفسي للصّوتين مختلف في نفس المتلقّي، فالنّوح يرتبط بالحزن واللّوعة على فراق آل عباد لكن صوت الحادي لا يمثّل عاطفة معينة.

[1]- يوسف أبو العدوس: التشبيه والاستعارة، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، العمان، الأردن، 2007، ص.15

[2]- فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الاندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 240..

أما "ابن زيدون" فهو من أكثر الشّعراء إنتاجا في عصر ملوك الطوائف وقد استطاع أن يوفّر لقصائده عنصر الجمال الفنّي بما استخدمه من تصوير ومن ذلك قوله وهو يمدح سجّانه " أبا الحزم بن جهور":[1]

وذُو تَدْرَإٍ لِلْعَزْمِ تَحْتَ أنَاتِهِ كُمُونُ الرَّدَى في فَتْرَةِ الأعْيُنِ النُّجْلِ

تُغِصُّ ثَنَائِي غَصَّ جَاهِدًا سِوَارُ الفَتَاةِ الرَّادِ بِالمِعْصَمِ الخَذِلِ

فالممدوح كما صوّره الشّاعر ذو عزّة ومنعة يكمن العزم والحزم تحت هدوئه واتزانه، كما يكمن التّأثير النافذ في انكسار العيون النّجلاء السّاحرة، ومحامد الممدوح كثيرة يضيق ثناء الشّاعر عن استيعابها، كما يضيق السّوار بمعصم الفتاة الحسناء الممتلئ ويمدحه في القصيدة ذاتها قائلا:[2]

هُمَامٌ عَرِيقٌ في الكِرَامِ و قَلَّمَا تَرَى الفَرْعَ إلاَّ مُسْتَمَدّا مِنَ الأَصْلِ

إذَا أشْكَلَ الخَطْبُ المِلِمُّ فإنَّهُ وآرَاءُهُ كَالخَطِّ يُوَضَّحُ بِالشَّكْلِ

فالممدوح كريم والكرم ليس طارئا عليه بل هو أصل في آبائه وأجداده الذين هم كأصل الشّجرة، أمّا أبناؤهم فهم كفروعها وغصونها.

والممدوح أيضا ذو بصيرة ثاقبة ورأي صائب وآراء الحكماء تبقى ناقصة ما لم يعزّزها رأي أبي الحزم إنّ مثال رأيه وآراء الحكماء عند الشّدائد الخطوب كالخطّ المهمل المبهم والشّكل هو الذي يوضّحه ويزيل الإبهام عنه.

أمّا "ابن عمار" فيمدح "الرّشيد بن المعتمد" استجلابا لقلبه والتماسا لقناعته في سلسة من التشبيهات البليغة إذ يقول:[3]

أنَـتَ إمّـا اعْتَرَضْتُـمْ دُرَّةَ التَّا جِ فَرَنْدُ الحُسَامِ وسْطَى الفَرِيدِ

وإذَا مَـا مَدَحْتُـمْ نكتـة الخُطْبـ ـة فَضَّ الحَدِيثُ بَيْتَ القَصِيدِ

وإذَا مَا رَكِبْتُمْ الخَيْلَ صَدْرَ الجَيْـ ـشِ عَينُ اللِّواءِ قَلْبَ الحَدِيدِ

---

[1]- ابن عبدون : الديوان ،ص .160

[2]- ابن زيدون: الديوان، ص.61

[3]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 428.

أنـتَ فيهم إنْ يَعْتَمُوا ليْلَةَ القَدْ رِ و إذَ يُصْبِحُونَ يَومَ العِيدِ

فـ "ابن عمار" من خلال تشبيهاته يحاول يقول أنّ الممدوح يتقدّم على سائر آل عبّاد بسلسة التشبيهات التي ساقها فهو يشبّه شدّة بأس "ابن عباد" بالحديد وهذا اعتراف منه بصلابة ممدوحه ويشبّهه أيضا بليلة القدر في اللّيلة المعتمة المظلمة وهو كالعيد في الصّباح. وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على رفعته وعزته وعلوّ مكانته.

وعندما أفتخر الشّاعر بنفسه وبدا متجلّدا في مصيبته أمام الشّامتين لجأ في ذلك إلى التشبيه الضّمني لأنّ فيه تعبيرا دقيقا عن حال الشّاعر المنكوب المنكِر الذي يأبى أن يُظهر انكساره أمام أعدائه والشّامتين فيه يقول"ابن زيدون" مفتخرا بنفسه أمام الأعداء:[1]

ولاَ يُغْبِـطُ الأعْدَاءَ كَوْنِي في السّجْنِ فَإنِّي رَأيْتَ الشّمْسَ تُحَصَّنُ بالدَّجَـنِ

ومَا كُنْتُ إلاّ الصّارِمَ الغَضْبَ في جَفنِ أو اللّيْثُ فِي غَابٍ أو الصَّقْرِ فِي وَكَنِ

فالصّورة التي رسمها الشّاعر لنفسه وقد سّجن كالشّمس تختفي وراء الغيوم الكثيفة، ولا بد لتلك الغيوم أن تنقشع يوما فتشرق الشّمس من جديد، وهو كالسّيف البتّار الذي يودَعُ في غمده لحين الحاجة إليه أو كالأسد والصّقر اللّذان يقبعان فيه في أوكارهما حينا ثم ينطلقان، وكان غرض الشّاعر من هذه الصورة الفنيّة تزيين المشبّه.

كما بدت الحركة في شعر الحروب والفتن في بعض صوره وتشبيهاته فهذا "ابن عمّار" يشبه "المعتمد" بالبحر حيث يقول:[2]

بَحْـرٌ إذَا رَكِبَ العُفـاَةُ شَكَوْنَهُ وهَبَ الغِنىَ في عِزّةٍ و سُكُونِ

واليَوْمَ قد أصْبحْتُ في غَمَرَاتِهِ إنْ لم تَغْتَنِـي رَحْمَةً تُنْجِينِي

بَعُدَتْ سَواحِلُهُ عليَّ وأدْرَكْـتُ أمْوَاجُـهُ فَتَلاعَبَـتْ بِسَفِينَتِـي

لَا شَكَّ في أنّـي غَرِيقٌ عُبَابُهُ إنْ لَـمْ يَمُـدَّ الفَتْحُ لِي بِيمِينِ

[1]- ابن زيدون: الديوان، ص 43.

[2]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق 2 ، مج 1 ، ص 224.

ف"ابن عمّار" يشبّه "المعتمد" بالبحر ويشبّه نفسه بالسّفينة التي تخرّ في عبابه، ونرى تشبيهه هذا ينبض بحركة البحر المضطرب وقد هاج وتلاطمت أمواجهه وتلاعبت بسيفنته وأوشك على الغرق وأخذ ينظر بلهفة إلى من يمدّ له يد الرحمة فينقذه ويخلّصه.

وورد في شعر الحروب والفتن في معرض حديث الشّعراء عن السّجن ووصفهم له "فابن عمار" يصف سجنه بأنّه عالٍ كأنّه صرْحٌ بنَتْهُ الجِنُّ لترقى إلى النّور وطيور المساء الجارحة يقول:[1]

عالٍ كأنَّ الجِنَّ إذْ مَرَدَتْ جَعَلَتْهُ مَرْقَاةٌ إلى النُّورِ

ففي تشبيهه هذا يحاول أن يبيّن حالته في السّجن.

فإذا جئنا لدالية "ابن اللبانة" نجدها تغرق في التّشابيه المختلفة نذكر قوله:[2]

نَسَيتُ إلاَّ غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ في المَنْشَآتِ كَأمواتٍ بألْحَادِ

فقد شبّه "المعتمد" وأهله عندما حُملوا على السفن بأنهم أموات بألحاد فكان المشبّه هو المعتمد وأهله والمشبّه به الأموات والأداة الكاف ووجه الشّبه الجمود واللّا حركة.

أمّا "ابن عمّار" فسلك سبيل التشبيه الضمني عند حديثه عن أعدائه وشامتيه فيقول:[3]

ولاَ تَلْتَفِتْ رَأْيَ الوُشَاةِ وقَولهمْ فَكَلُّ إنَاءٍ بالذِّي فيه يَرْشَحُ

فحسب ابن عمّار فالوشاة والمفسدين كالأواني التي ترشح بما فيها، فلا يتوقّع منهم إلاّ أن يُظهروا بعض ما تضمر وتضمّه صدورهم.

وعليه يمكن القول أنّ التشبيه أيضا كان له دور كبير في منح الشّعراء مجالا واسعا وعميقا للتعبير عن واقعهم وتحقيق مستوى فنّي رفيع للصّورة الفنية وإبراز المستوى الفني في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف.

---

[1]- محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، ص .114

[2]- فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص .145

[3]- المرجع السابق، ص .166

❖ **الكناية:**

هي لفظ يمكن حمله على محمل الحقيقة والمجاز وهي من الأساليب البلاغية في التعبير[1] يقول "الزركشي" الكناية عن الشيء الدلالة عليه من غير تصريح باسمه وعند أهل البيان: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورديفه في الوجود فيرمي إليه ويجعله دلاليا عليه، فيدل على المراد من الطريق أولى".[2]

وإذا كان شعراء الطّوائف قد اهتموا بالتّشبيه والاستعارة في شعر الحروب والفتن لإبراز صورهم الفنيّة فإنّنا نجدهم أيضا قد اهتموا بالكناية لما لها من مكانة كبيرة في إبراز الصورة الفنية، ولما تلعبه من دور كبير في عكس مشاعرهم وأحاسيسهم التي تفجّرت بفعل الحروب فاستخدموا الكناية كما هو الحال بالنّسبة ل"ابن عمار" والذي يقول في مدح "المعتمد بن عبّاد":[3]

وَمَنْ مِثْلُ عَبَّادٍ و مَنْ مِثْلُ قَوْمِهِ لُيُوثُ حُرُوبٍ أو بُدُورُ نَوَاسِـمِ

مُلُوكُ مُنَاخَ العِزِّ فِي عَرَصَاتِهِمْ وَمثْوَى المعَالِي بَيْنَ تِلْكَ المعَالِمِ

وهي كناية عن الرّفعة والشّرف فهو ينسب مناخ العزّ والشّرف إلى عرصات ممدوحه "المعتمد".

وهذا "ابن حمديس" مادحا المعتمد بن عبّاد يقول:[4]

هَزْبَرٌ عَلَى بَحْرٍ مِنَ الْحَرْبِ مُفْعَمُ عَلَى جِسْمِهِ نَهْيٌ و فِي يَدِهِ نَهْرُ

فقد استعمل الشّاعر لفظة (النّهر) كناية عن سيف "المعتمد بن عبّاد" الذي يشبه النّهر في لونه ومضائه.

ويقول " ابن اللبانة " راثيًا مملكة ابن عبّاد مُذيبا روحه و قلبه وفاءً لهذا الملك:[5]

وَكَعْبَة كَانَت الآمَالُ تَعْمُرُهَا فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَ لَا بَادِ

---

[1]- أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجي: كتاب ناشر للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، د.ت، ص.12

[2]- أحمد مطلوب: فنون بلاغية البيان البديع، دار البحوث العالمية، ط1، الكويت، 1975، ص169..

[3]- نميري تاج السر أحمد لقمان: الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، خصائصه واتجاهاته، ص .114

[4]- ابن حمديس: الديوان، ص.233

[5]- ابن اللبانة الداني، الديوان، ص.216

فلفظة (كعبة) كناية تدل على السموّ والعلوّ والقداسة والشّجاعة والجمال وهي دلالة تنسجم مع مكانة آل عبّاد وقدْرهم.

أمّا "ابن زيدون" فقد وظّف الكناية في قوله:[1]

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي و النَّجْمُ فِي قَرَنِ فَفِيمَ أَصبحْتُ مُنْحَطّا إِلَى الْعَفَرِ

فالشّاعر هُنا استخدم عبارة (والنّجم في قرن) كناية عن الرّفعة، واستخدم عبارة منحطًّا إلى العَفَرِ (كناية عن الدُّنُوّ والانحِطاط فالشّاعر استخدم كناية الصّفة ليعبّر عن الحال الذي كان عليه، والحال الذي آل إليه بعدما سُجِن).

وفي موضع آخر يمدح " ابن زيدون " سَجَّانه "ابن الحزم بن جهور" قائلاً:[2]

كـم اشْترى بُكْرَى عينيهِ مِنْ نَهَـرٍ هُدُوء عين الهُدَى فِي ذَلك السَّهَرِ

فِي حَضْرَةٍ غَابَ صَرْفُ الدَّهْرِ خِشيةً عنْها ونَام القَطَا فيها ولم يَثـرِ

فالشّاعر كنّى بعبارة (نام القَطَا فلم يثُر) عن الأمْن والأمان اللّذين سادا البلاد في ظلّ حكم "أبي الحزم بن جهور".

كما استخدم الشّاعر "ابن اللّبّانة" الكناية أثناء شكوه من الأيام لاستعطاف أميره "ابن جهور" فقال:[3]

أَجْفَتْنِي فَلَم يَنْبُتْ رَبِيعُ وحَطَّتْنِي فلَمْ يَثْبُتْ يَفَاعُ

فالشّاعر هنا كنّى بقوله (لم ينبت ربيع)، و(لم يثبت يفاع) عن قوّة الأيّام وشدّتها. وهي كناية عن صفة ليُعبِّر عن قوّة الأيّام والرّزَايا التي أبْتُلِيَ بها.

ما أوردْناه من كنايات كانت من بين الوسائل التي اعتمدها الشّعراء في عصر ملوك الطّوائف في نظْم شعرهم والتّعبير عمّا يعيشونه من واقع مرير بسبب الحروب والفتن.

---

[1]- ابن زيدون: الديون، ص.83

[2]- المصدر نفسه، ص .149

[3]- محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، ص .180

ومن خلال ما سبق يتضح جليّا أنّ شعراء عصر ملوك الطوائف كانوا يخوضون آلاما جساما من جراء الحروب والفتن التي كانت تعيش تحت نيرها المدن الأندلسيّة فجاءت الصّورة الفنيّة لشعر الحروب والفتن معبّرة عن حجم تلك المأساة، لهذا لم يتركوا وسيلة فنيّة إلاّ واستخدموها في أشعارهم من تشبيه واستعارة، وكناية كترجمة لواقعهم و محاولة تعديل وتغيير ذلك الواقع.

المبحث الثالث: الموسيقى الخارجية والداخلية

1- الموسيقى الخارجية:

إنّ موسيقى الشِّعر العربيِّ تقوم في شكلها العام على الوزن والقافيَة باعتبارهما إطارًا خارجيًا لها، ومن مكوّناتها الأساسيّة التي تمنحها خصوصيّة الحضور داخل النصّ الشّعري، ومن ثمّ فإنّ الموسيقى الخارجيّة تُعنَى بدراسة الوزن والقافية وما يتعلّق بهما من أحكام يُراعَى فيهما ما ارتضته الأذن العربية من أوزان تُلائِم غرض القصيدة وتستجيب لعاطفة الشاعر ومحتواها الانفعالي، ولقد اختار شعراء عصر ملوك الطّوائف من الأوزان والقوافي ما يتناسب وعواطفهم وما يعبّر عن الأوضاع التي كانت سائدة ليلامس القلوب والأفْئِدة ويصل إلى غرضه.

بعد هذه التّوطئة سنحاول الوقوف على أهمّ البحور الشّعرية التي وُظّفتْ في شعر الحروب والفِتَن في عصر ملوك الطّوائف بالأندلس ومنه نتعرّض إلى القوافي التي حرص الشّعراء على إتّباعها و التي طغت في شعرهم.

❖ **البحور والأوزان:**

البحر هو ذلك الوزن الخاص الذي يقع ويلي وحي الفريض عند الشاعر فيبني قصيدته على إيقاعاته، ويعدل بين أبياتها في التزام تفعيلاته، ويجد في الجري على مثاله دقة في ترجمة انفعالاته.[1]

أما الوزن فيعد عنصرا فعالا في التجربة الشعرية، وهو "يتكون من تآلف التفاعيل وتجانسها في سلسة أفقية أطولها ثمانية تفاعيل في البيت الواحد، وهو ما اصطلح عليه الخليل بعروض الشعر أي أوزان الشعر"[2]

"والوزن أجمل ما يتميز به الشعر العربي في نصاعته وجماله وإشراقته"[3]

"ولقد وظف شعر الحروب والفتن معظم البحور الشعرية وتفاوت المستوى العددي لها تفاوتا ملحوظا حسب الأغراض الشعرية ومضامين القصائد والحالة النفسية للشاعر.

---

[1]- محمد الكاشف: العروض بين التنظير والتطبيق، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1985، ص.17

[2]- عبد الرحمان كيبرماسين: البنية الإقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهر، ط1، 2003، ص86.

[3]- عبد المالك مرتاض: بنية الخطاب الشعري، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1993، ص133.

فنجد بروز الطويل والبسيط بشكل ملفت، كما نجد الكامل والوافر بمستوى أقل، ثم تأتي بقية البحور الشعرية الأخرى.

وبروز الطويل والبسيط له مبرراته ذلك أن الخاصية التركيبية لتفعيلات كل منهما تمنحهما درجة إيقاعية متميزة فكلاهما يتكون من تفعيلتين مختلفتين مكررتين أربع مرات في البيت ومن شأن هذا التنوع أن يبعد الرتابة والملل ويجدد الإيقاع ويهيأ المستمع لتلقي الخطاب (الشعر) في كل مرة.

ومن أمثلة الطويل قول الشاعر أبي حفص عمر بن حسن الهوزني:[1]

أَعِبَادُ حلِّ الرُّزْءِ وَالْقُوَّمُ هَجَعٌ عَلَى حَـالَـةٍ مِنْ مِثْلُهَـا يَتَـوَقَّـعُ

فَلُقْ كِتَابِيَّ مَنْ فَرَاغِكَ سَاعَتَةَ وَإِنْ طَالَ فَالْمَوْصُوفَ لِلطُّولِ مَوْضِعٌ

وكذلك قول السمسير في نقد ملوك الطوائف:

وَلِيَتِمُّ فَمَا أَحْسَنْتُم مُنْذُ وَلَيَتِمُّ وَلَا صُنْتُم عُمِّنَّ يَصُونُكُمْ عَرْضَا

ففي المثال الأول نجد أن التفاعيل المكونة للبحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

تتماثل إيقاعيا ومكانهما في الشطرين كما أن المقاطع المكونة لهذا البحر أعطت مساحة وحرية للشاعر وهي الأقدر على وصف مأساة الأندلس وتشخيص الحالة التي آل إليها وضع الأندلسي ويستطيع الشاعر من خلال طول هذه المقاطع أن يترك العنان للتعبير عن مشاعره بكل حرية.

ومن أمثلة البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) قول الشاعر:[2]

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُـسِ سَمَاعِ مُقْتَـدِرٍ فِيهَـا وَمُعْتَضِـدٌ

أَلَقَابِ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهِرِّ يَحْكِي اِنْتِفَاخُ صَوْلَةِ الْأَسَدِ

[1]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق 1 ، مج 2 ، ص 81، 89.

[2]- محمد جاسر جبالي أسعد : الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، ص 56

فالشاعر هنا في موقف تحريض ممزوج بالسخرية اللاذعة ويريد أن يحقق مبتغاه لذلك لجأ إلى البسيط لتنوع تفعيلاته من جهة ولطول مقاطعه كما في الطويل من جهة أخرى ليمنحه ذلك مساحة لغوية أكبر.

ومن أمثلة البسيط أيضا قول المعتمد بن عياد:[1]

بَلَى الْمُبَارَكَ فِي أَثَرِ اِبْنِ عِبَادِ بَكَى عَلَى أَثَرِهَا غِزْلَانٌ وَ آساد

بَكَتْ ثَرِيَّاهُ لاغمت كَوَاكِبَهَا بِمِثْلُ نَوَى الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الْغَادِيِّ

فالشاعر هنا في مقام البكاء على ملكه الزائل وعلى فقدانه لولديه فهو مكلوم و حزين و كسير فكانت كلماته بمثابة الآهات والزفرات المنبعثة من داخله، وهذه المشاعر المتدفقة والمسترسلة تتجه في الغالب نحو ايقاع البسيط والطويل

إذن فالطويل والبسيط هو الأقدر على التعبير على عواطف البكاء والحسرة والألم كما أنه الأقدر على منح الشاعر مساحة أكبر وخيارات لغوية أوسع كما أن التموجات النفسية للتجربة الشعرية تميل إلى تفعيلاته المتنوعة ومقاطعه الطويلة

وإذا كان الطويل والبسيط يحتل صدارة البحور في شعر الحروب والفتن في الأندلس عصر ملوك الطوائف، فإن باقي البحور الشعرية كان لها حضورها أيضا فبما أن " الشعر فيض تلقائي بمشاعر قوية والشاعر عندما تشيج نفسه بالشعر لا يضع في اعتباره بحرا أو قافية وإنما يأتي هذا طواعية ليلائم أحاسيسه وانفعالاته بحكم أن الوزن والقافية جزء لا يتجزأ من العمل الشعري، وبحكم أن الصوت الموسيقي ليس لحنا خارجيا بقدر ما هو عضو متفاعل وعنصر ملتحم مع بقية عناصر النص الشعري"[2]

ومن جملة هذه البحور الكامل والوافر والمتقارب وغيرهما ومن أمثلة ذلك قول أبي إسحاق الألبيري في نونيته المناهضة لليهود (من المتقارب):[3]

---

[1]– فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص.177

[2]– محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص .74

[3]– فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص.250

ألا قُل لِصِنهاجَةٍ أَجمَعين بُدورِ النَدِيِّ وَأُسدِ العَرين

لَقَد زَلَّ سَيِّدُكُم زَلَّةً تَقِرُّ بِها أَعيُنُ الشامِتين

وهو من بحر المتقارب وسمي بذلك لتقارب أجزائه وهي ثمانية وتشبه بعضها أربعة في كل شطر مكررة من جزء فعولن.

وقد لجأ الشاعر إلى هذا البحر استجابة لحالة شعورية لذلك وهي الوضع الذي آلت إليه مدينتهم بعد تعيين اليهودي كاتبا ووزيرا بالدولة وتحكمه في كل صغيرة وكبيرة والفساد الذي ألحقه بالدولة، فالشاعر هنا يحرض عليه ويعدد جرائمه.

وقول ابن الحسن يوسف بن الجد في هجاء ابن النغريلة[1]

تَحَكَّمَتِ اليَهُودُ عَلى الفَرُوجِ وَتَاهَتْ بِالبِغَالِ وَ بِالسُّرُوجِ

وَقامَت دَوْلَةُ الأَنْذالِ فِينا وَصار الحُكْمُ فِينا لِلعُلُوجِ

وهو من بحر الوافر وتفعيلاته: مفاعلتن مفاعلتن فعولن مكررة في كل شطر.

ومن أمثلة الكامل قول الشاعر:[2]

الرُّومُ تُضْرِبُ فِي الْبِلَادِ وَ تَغْنَمُ وَالْجَوْرُ يَأْخُذُ مَا بَقِّيُّ وَالْمُغْرَمُ

وَالْمَالُ يُورِدُ كُلُّهُ قَشْتَالَةً وَالْجُنْدُ تَسْقُطُ وَ الرَّعِيَّةُ تُظْلَمُ

أَسَفِيٌّ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلَهَا اللهُ يُلَطِّفُ بِالْجَمِيعِ وَ يُرَحِّمُ

والكامل متكون من التفاعيل، متفاعلن متفاعلن متفاعلن في كل شطر وهي تفاعيل متماثلة.

2- الموسيقى الداخلية:

لا تكتمل ملامح الموسيقى الخارجية ألا بتفاعلها مع الموسيقى الداخلية بجميع مكوناتها، مكوناتها الصوتية والبلاغية، فالصوتية تتمثل في التكرار والمد والهمس والجهر أما البلاغية فتتكون من المحسنات البديعية كالطباق

[1]- محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص .74

[2]- المقرّي أحمد محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ص 210 .

والجناس، فالشاعر يعزف بالألفاظ إيقاعا موسيقيا تتقاطع فيه قواعد النظم مع أحاسيسه وانفعلاته فنجد تارة يوظف الهمس وتارة الجهر وأحايين يعتمد المد ومرة يوظف الفاظا متجاورة من أجل تحقيق انسجام صوتي داخلي. وسنحاول الوقوف على هذه المكونات الصوتية والبلاغية للموسيقى الداخلية في شعر الحروب والفتن في الأندلس – عصر ملوك الطوائف– من خلال نماذج شعرية.

أ– المد والهمس والجهر:

يمتاز شعر الحروب والفتن في الأندلس في عصر الملوك الطوائف بالثراء العاطفي وتنوع المشاعر والانفعالات بين الأسى والبكاء الفرح والسخط والتذمر، وقد انعكس ذلك على اللغة الشعرية عند شعراء هذا العصر و التي وظفت من مجموعة من العناصر خلقت التميز والإبداع.

فالحس المأساوي يظهر جليا في هذا الشعر مما شكل موجات شعورية في شكل أهات و بإيقاع فيه همس، والأصوات المهموسة مجموعة في قولهم (فحثه شخص سكت)،" وهي تلك التي يخلوا فيها الصوت من الرنين نتيجة بقاء الوترين الصوتيين في حالة توقف عن العمل"[1]

ومن النماذج التي تؤكد اعتماد الشعراء الهمس في البناء الموسيقي للقصيدة قول الشاعر:[2]

أَلَيْسَ بِهَا ابي النَّفْسَ شَهْـمٌ يُدِيرُ عَلَى الدَّوَائِرِ إِذْ تَـدُورُ

لِقَدَّ خَضَّعَتْ رِقَابُ كُنْ غَلِبَا وَ زَالَ عُتُوُّهَا وَ مَضَى النَّفُورُ

وَهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلٌّ وَسَامِحٌ فِي الْحَرِيمِ فَتَى غَيُورَ

وحقق الهمس إيقاعا موسيقيا خافتا، كما عكس المد تلك الحالة الشعورية المنفعلة والمضطربة لذلك يكون الإيقاع ممتدا بطيئا تارة وسريعا تارة أخرى يتكامل فيه الصوت المهموس والممدود في أداء واحد.

ومن أمثلة المد قول أبي إسحاق الألبيري:[3]

---

[1]– عبد القادر عبد الجليل : علم اللّسانيات الحديثة ، دار صفاء للنّشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ط1 ، د ت، ص 10.

[2]– محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 74.

[3]– المرجع نفسه، ص 74، 75.

أَلا قُل لِصِنهاجَةٍ أَجمَعين بُدورِ النَدِيَّ وَأُسدِ العَرين

فالمد جاء في أول اللفظ من البيت الأول للانتباه والتدبر فيما سيقال.

كما ورد المد بالياء ومن أمثلة ذلك (أعيانهم) في قول الشاعر:[1]

فكيف اختفت عنك أعيانهم وفي الأرض منها تضرب القرون

وورد المد بالواو كما في قول الشاعر:[2]

فَعزَّ اليَهـودُ بِهِ وَانتَـخَوا وَتاهوا وَكانوا مِنَ الأَرذَلين

وَنالوا مُناهُم وَجازوا المِدى فَحانَ الهَلاكُ وَما يَشعُرون

وَطَـافُوا لَدَيْنَـا بأفراحهـم عَلَيْهُمْ صَغَارٌ وَ ذُلٌّ وَ هُونٌ

في الكلمات الأتية: انتخوا – تاهوا –كانوا – نالوا – طافوا.

وفي نونية " أبي إسحاق" لم يكن الهمس بنسبة عالية لأن الحالة النفسية للشاعر لم تكن بصدد الهدوء والسكون والتأمل.

وإذا كان الهمس والمد قد عبر عن حالة شعورية وحس مأساوي وأبرز تلك الآهات والأنّات التي تنبعث من كل زاوية من زوايا المدن الأندلسية.

فإن الجهر هو الاخر كان انعكاسا لذلك السخط والتذمر من الأوضاع المتردية وما آل إليه وضع الأندلس من حروب وفتن داخلية وأطماع وكيد أجنبي ينهش جسمها ويفتت عقدها، فالأصل في أصوات الهمس أنها قليلة المعجم العربي فقد اثبت الاستقراء " أن أربعة أخماس الكلام العربي يتكون من المجهور بينما لا تزيد نسبة الأصوات المهموسة على عشرين في المئة".[3]

---

[1]– إسحاق الالبيري : الديوان ، ص 89

[2]– المصدر نفسه، ص 89.

[3]– محمد مرتاض: مفاهيم جمالية في الشعر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط ، 1998، ص .145

ولقد أتاح الجهر وعبر عن ذلك السخط من أوضاع متعفنة ترفضها النفس الأبية، وكثيرا ما كان الجهر مرافقا للاحتكاك ومن أمثلة ذلك قول أبي "إسحاق الألبيري" في نونيته المناهضة لليهود:[4]

أَلا قُل لِصِنهاجَةٍ أَجمَعينَ ... بُدورِ النَدِيَّ وَأُسدِ العَرينَ

لَقَد زَلَّ سَيِّدُكُم زَلَّةً ... تَقِرُّ بِها أَعيُنُ الشامِتينَ

تَخَيَّرَ كاتِبُهُ كافِراً ... وَلَو شاءَ كانَ مِنَ المسلِمينَ

فَعَزَّ اليَهودُ بِهِ وَانتَخَوا ... وَتاهوا وَكانوا مِنَ الأَرذَلينَ

وَنالوا مُناهُم وَجازوا المِدى ... فَحانَ الهَلاكُ وَما يَشعُرونَ

فَكَم مُسلِمٍ فاضِلٍ قانِتٍ ... لِأَرذَلِ قِردٍ مِنَ المشرِكينَ

وَما كانَ ذَلِكَ مِن سَعيِهِم ... وَلَكِنَّ مِنّا يَقومُ المعينَ

فَهَلّا اِقتَدى فيهُمُ بِالأُلى ... مِنَ القادَةِ الخيرَةِ المتَّقينَ

وَأَنزَلَهُم حَيثُ يَستاهِلونَ ... وَرَدَّهُم أَسفَلَ السافِلينَ

وَطافوا لَدَينا بِإِخراجِهِم ... عَلَيهِم صِغارٌ وَذُلٌّ وَهَونَ

وَقَمَّوا المزابِلَ عَن خِرقَةٍ ... مُلَوَّنَةٍ لِدِثارِ الدَفينَ

وَلَم يَستَخِفّوا بِأَعلامِنا ... وَلَم يَستَطيلوا عَلى الصالِحينَ

وَلا جالَسوهُم وَهُم هُجنَةٌ ... وَلا واكَبوهُم مَعَ الأَقرَبينَ

أَباديسُ أَنتَ اِمرِؤٌ حاذِقٌ ... تُصيبُ بِظَنِّكَ نَفسَ اليَقينَ

فَكَيفَ اِختَفَت عَنكَ أَعيان ... طفي الأَرضِ تُضرَبُ مِنها القُرون

وَكَيفَ تُحِبُّ فِراخَ الزِنا ... وَهُم بَغَّضوكَ إِلى العالَمينَ

وَكَيفَ يَتِمُّ لَكَ المرتَقى ... إِذا كُنتَ تَبني وَهُم يَهدِمونَ

---

[4]- إسحاق الالبيري : الديوان ، ص 89

وَكَيفَ اِستَنَمتَ إِلى فاسِقٍ وَقارَنتَهُ وَهُوَ بِيسَ القَرين

وجاء هذا التوظيف للأصوات المجهورة مقترنا بتوظيف عالي للأصوات الاحتكاكية والتي "تكون بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع فيحدث الهواء الخارج أثناء خروجه صوتا مسموعا".[1]

وجاء هذا الاحتكاك الكثيف كتعبير عن تلك الكتلة الكبيرة من الغضب والرفض القوي لذلك التعيين المخل بنظام الحكم من قبل "ابن حبوس" لليهودي والذي استغل منصبه لتقريب اليهود من السلطة والتحكم في أمور الحكم والبلاد، كما جاء الجهر ملائما للموضوع الذي تحدث فيه الألبيري هو الرفض والاستنكار لتعيين اليهودي كاتبا ووزيرا، وجاء مناسبا للثورة التي تحركت إثر هذه الكارثة التي ألمت بالمسلمين، فكان هذا التوظيف بمثابة البركان الذي يوشك أن ينفجر.

يمكن القول أن المد كان ظاهرة بارزة في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف وكان يعكس امتداد تلك الآهات والزفرات المنبعثة من صميم الشاعر وتأوهاته على المشهد المأساوي في الأندلس، أما الهمس فكان حظه قليلا لأن الأصل في اللغة العربية قلة الحروف المهموسة.

كما أن وجوده في شعر الحروب والفتن قليل ويعبر عن حالة الأسى والتوجع كما أن شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف في موقف نقد واستنهاض للهمم والتحريض والدعوة إلى الجهاد وبكاء مصحوب بمحاولة إيقاظ الضمائر لذلك وجب أن يتجه إلى الجهر.

كما أن الجهر يخلق نوعا من الحركة والإثارة "فالحركة في الصوت المجهور تقرع الآذان بشدة، وتوقظ الأعصاب بصخبها وبذلك يكون له بعد الإثارة الجهورية".[2]

ب- التكرار:

التكرار تقنية إيقاعية تساهم في توازن النص، وإعطائه السمة الخاصة به خلال تكرار حرف أو كلمة أو عبارة، أو مقطع بكامله، وتكمن قيمة التكرار في أنه يعطي نغما موسيقيا ممتعا ومثيرا يوظف لخلق قيمة معنوية

[1]- رابح بوحوش: البنية اللغوية، لبردة البوصري، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1993، ص 20.

[2]- مصطفى السعدني: البنيات الأسلوبية ، مطابع رواي للإعلان، المصافر، الاسكندرية، د ط، د ت، ص 33 .

للألفاظ بما تكسبه من دلالات لها علاقة مع ذات الشاعر.[1]

سجلت ظاهرة التكرار حضورها كمكون إيقاعي في شعر الحروب والفتن في الأندلس –عصر ملوك الطوائف– وهو أحد المفاتيح التي بواسطتها يستطيع القارئ الولوج إلى عالم القصيدة، وإنه "وسيلة من الوسائل السحرية التي تعتمد على تأثير الكلمة في إحداث نتيجة معينة".[2]

إن التكرار يزيد المعنى وضوحا ويضفي على النص طابعا جماليا وموسيقيا متميزا، وظاهرة التكرار تبدأ بالحرف وتمتد إلى الكلمة وصولا إلى العبارة وسنحاول الوقوف عند هذه الظاهرة من خلال هذه النماذج الشعرية.

يقول السميسر الألبيري بعدما رأى ما حل بالزهراء:[3]

وَقَفتَ بالزهراء مستعبـــــرا مُعْتَبَراً أَنْـدُب أَشْتاتـــــــــاً

فَقُلتِ يا زَهَرا لا فارجعـــي قالَت وَ هَل يُرْجِع مِن ماتا

فَلَم أَزَل أُبَكِّي وَ أُبَكِّي بِها هَيْهات يُغَنِّي الدَمْع هَيْهات

كَأَنَّما أُثار مِن قَدّ مَضّـــى نَوادِب يَنْدَبنَ أَمْواتـــــــاً

في هذه المقطوعة تكرر حرف القاف أربع مرات في (وقفت– فقلت– قالت– قد) والقاف حرف مجهور انفجاري ومن حروف والأصوات المهجورة تحدث نتيجة "تذبذب الأوتار الصوتية أثناء القلقة النطق بها لاقترابها من بعض"[4]

والأصوات المجهورة هي حروف اللغة العربية باستثناء الهمزة و الحروف المهموسة.

وقد عبر الشاعر من خلال تكرار هذا الحرف عن صرخته المدوية لما حل بالزهراء فقد وقف مذهولا مناجيا الزهراء قائلا يا زهرا ألا فارجعي وترد عليه، قالت وهل يرجع من مات، فحرف القاف جاء مقترنا بالفعل

---

[1]– فايز أبو شمالة : السجن في الشعر الفلسطيني ، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي ، رام الله ، فلسطين ، ط 1 ، 2003 ، ص 180.

[2]– مصطفى السعدني : البنيات الأسلوبية ، مطابع رواي للإعلان ، المصافر ، الاسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 30 .

[3]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص 250

[4]– محمد البهنساوي : علم الأصوات ، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، ط1 ، 2004 ، ص 50

الماضي مما يوحي بأن الزهراء أصبحت من الماضي ولم تعد زهراء المعروفة، كما أن حرف القاف من الحروف الشديدة التي توحي بالقوة و شدة الألم

كما تكرر حرف العين خمس مرات ليعكس تلك المرارة الذي يعشه الشاعر.

وأحدث هذا التكرار نغما موسيقيا و إيقاعا متناسقا بين أجزا القصيدة.

وفي هذه الأبيات تكررت ألفاظ بعينها (فقلت، قالت)، (فارجعي، يرجع)، (ابكي، ابكي)، (اندب، يندبن).

وهذا التكرار أكد على حقيقة مرة وهي الزهراء فلم يبقى الا الوقوف على إطلالها و البكاء على ماضيها وندب أمواتها.

ج- الطباق:

ويسمى المطابقة والتكافؤ والتضاد، وهو الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة[1]وحسب رأي ابن رشيق "فإن الطباق يجب أن يكون سهلا خفيف الروح، قليل الكلفة، يكون أرسخ بالسمع وأعلق في القلب"[2]

ويعد الطباق من الأساليب الفنية الخصبة التي اعتمدها الشعراء في عصر ملوك الطوائف، ولم يكن لجوؤهم إلى التضاد بهدف إبراز قدرتهم على صنع البلاغة اللفظية والزنا أو مجارات بعض الشعراء، بل وظف التضاد ليصور التناقض السياسي واضطراب العلاقات بين ملوك الطوائف وكثرة الدسائس والمؤامرات، وانتشار الحروب والفتن وبالتالي قدرة الطباق على كشف التوتر النفسي عند الشاعر.

وقد سعى الشعراء في عصر ملوك الطوائف إلى اختيار الثنائيات التي تصور الفجوة بين الواقع والرغبة ، أو بين الماضي والحاضر مما يعكس ويكشف عن التوتر النفسي عند الشاعر فيما يتعلق بشعرهم عن الحروب والفتن ومن بين هذه الثنائيات نجد ثنائية الحزن والفرح كقول ابن عباد:[3]

فِيما مَضَّى كَنَّت فِيَّ الأَعْياد مَسْرُورا فُساءكَ العِيد فِيَّ أغمات مَأْسُورَة

[1]- جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة ،شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904، ص .255

[2]- عبد العزيز عتيق : علم البيان ، ص .76

[3]- فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص.228

وقول إبن حمديس:[1]

تَعَرَّيتِ مِن قَلْبِي الَّذِي كَآن ضاحِكا فَماً أَلْبَس الأَجْفان إِلّا بواكيا

وقوله أيضا:[2]

وَما فَرُحِيّ يَوْم المِساءَة طائِعا وَلا حُزْنِي يَوْم المِساءَة عاصِياً

وقد أعان الطباق الشاعر "ابن اللبانة" في وصف الحالة التي كان عليها ابن عباد سابقا ثم التحول إلى الانقلاب الحالي بعدما عبس له الدهر وذلك في قوله:[3]

وَقِلّ لِعالَمها السُفْلِيّ قَدّ كَتَّمَت سَرِيرَة العالِم العَلَوِيّ أغمات

(السفلي– العلوي)

وفي تشكيل الصور الثنائية للتعبير عن محنة الحرب التي ماهي إلا عاقبة من عواقب الدهر الذي لا تتوقف مصائبه ورزاياه يقول: ابن عبدون[4]

فَالدَهْر حَرْب وَإِن أَبْدَى مُسالَمَة وَالبِيض وَالسُود مِثْلِ البَيْض وَالسُمْر

(الحرب، السلم)، (البيض، السود)، (البيض، السمر)

ومن المشاهد الإنسانية المأثرة التي خلفتها الحروب في عصر ملوك الطوائف ما لحق بالأطفال والشيوخ ونساء من قتل وتيتيم، وقد برع ابن العسال في اختيار مشاهد الأكثر تأثيرا والأقدر على جدب وجدان المتلقي والتي كانت غنية بالطباق وهذا في قوله:[5]

كَمَّ مَوْضِع غَنِمُوهُ لَمْ يَرْحَم بِهِ طِفْل وَلا شَيْخ وَلا عَــذْراء

وَكَـم رَضِيع فَـــرَقُوا مِن أُمــّهُ فَلَـــهُ إِلَيها ضَجَّة وَبِغـاء

وَلا رُبّ مَوْلُـــود أَبُوهُ مَجْـدَل فَوْقُ التُـراب وَأُمّهُ البَيْـــداء

---

[1] – ابن حمديس : الديوان ، ص .530

[2] – المصدر نفسه، ص .530

[3]– ابن حمديس : الديوان ، ص .534

[4]– فدوى عبد الرحيم قاسم : الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص .196

[5]– المرجع نفسه، ص195.

وَمَصُونَة فِيَّ خِدْرهــا مَحْجُوبَــة قَدّ أَبْرَزُوها ما لَهـا استخفاء

وَعَزِيز قَوَّمَ صار فِيَّ أَيْدِيهُـــم فَعَلِيّهُ بَعْدِ العِزَّة استخــداء

الطباق بين: (طفل، شيخ)، (محجوبة، أبرزوها)، (عزيز، استخداء).

ووظف "الهوزني" في الطباق في حضّه للمعتضد، ليقنعه بأن بعد مملكته الكائن التي حصلت بـ (بريشتر) لا يعني ابتعاد الخطر عنه، فبلاد الأندلس وحدة واحدة لا بد من الدفاع عن أي مدينة فيها، وقد طابق "الهوزني" بين (شرق وغرب) في قوله:[1]

أعباد طاقَة الدِرْع وَأَتَّسِع الخَرْق وَلا غَرَبَ لِلدُنْيا إِذا لِمَ يُكَنّ شَرْق

د- الجناس:

الجناس "هو تشابه اللفظين في النطق واختلافها في المعنى، وسبب هذه التسمية راجع إلى أن حرف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد، والجناس نوعان: الجناس التام والجناس غير التام[2] "فأما الأول فهو ما اتفق فيه اللفظتان في أربعة أمور (أنواع الحروف، أعدادها، هيئتها الحاصلة في الحركات والسكون، ترتيبها) أما الغير التام فهو ما اختلف في اللفظان في واحد من الأربعة السابقة"[3]

ومن الشواهد الدالة على استعمال الجناس بنوعيه التام والناقص، نجد الجناس التام في قول الشاعر ابن خلصه الضرير:[4]

يا ضَرِيحا هَوَى عِظاماً عِظاماً وَخَلِيلاً أَمْسَيتِ مِنْه خَلِيلاً

وقول ابن العسال[5]

لِثُكْلكَ كَيْفَ تَبْتَسِم الثُغُور سَرَّرا بَعْدِ ما بَئِســتَ ثُغُـور

---

[1]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق 3 ، مج 1 ، ص 85.

[2]- يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية -علم المعاني، علم البيان، علم البديع -دار المسيرة للنّشر والتوزيع ، ط1، عمان، الأردن ، 2007 ، ص 276.

[3]- المرجع نفسه ، ص 276.

[4]- ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق 3 ، مج 1 ، ص 224.

[5]- محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، ص 164.

فقد جانس ابن خلصة الضرير بين (عظام وعظام) وهو جناس بين الموصوف والصفة، بمعنى ارتباط الصفة بالموصوف، فالعظام التي يضمها القبر هي لشخص عظيم القدر، فقد حقق الجناس العظمة لعظام الميت.

أما ابن العسال فقد جانس بين (الثغور) أي الأفواه، والثغور (الحصون) وأسند للفظ الأول الفعل (تبتسم)، وأسند للفظ الثاني الفعل "بئست" وفي الاسنادين كان الجناس كان للجناس أثر في إغناء المعنى والصورة الفنية ، فالشاعر يتساءل مستغربا عن الابتسام بعد سقوط الحصون.

ومن الناقص قول المعتمد:[1]

غَرِيب بِأَرْض المغَرَّبَيْنِ أُسَيِّر سَيَبْكِي عَلِيّهُ مِنْبَر وَ سَرِير

وقول ابن حمديس:[2]

بِدار ٱغْتِراب كَأَنَّ الحَيَاَة لَذِكْر الغَرِيب بِها ناسيــة

وفي هذين البيتين جانس المعتمد بن عباد بين "غريب والمغربين" وقد حقق التجانس علاقة بين الإحساس بالغربة ومكان الغربة، أما في البيت الثاني لابن حمديس فقد أضاف التجانس إلى فجيعة الموت أو حسرة الرثاء ألم الغربة والبعد المكاني.

ويقول ابن اللبانة في رثاء العباد[3]

وَيا مُؤَمِّل وادِيهُم لِتُسَكِّنهُ خُفّ القَطَّيْنِ وَ جَفَّ الزَرْع

ففي قوله خف القطين، وجف الزرع، جانس بين خف وجف للدلالة على ارتباط الرحيل والقحط بغياب آل عباد عن مملكتهم.

ومن الظواهر الأسلوبية في الجناس، مجيء اسم المرثي في –عصر ملوك الطوائف– ركنا من أركان الجناس كقول "المعتمد بن عباد" في رثاء ابنيه الفتح ويزيد يقول:[4]

---

[1]– فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص .226

[2]– ابن حمديس : الديوان ، ص .523

[3]– السعيد محمد مجيد : شعر ابن اللبانة الداني ، منشورات جامعة البصرة 1977 ، ص 40 ، .41

[4]– فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف ، ص .225

أُفْتَح لَقَدّ فَتَحُتّ لِي باب رَحْمَة كَمّا بيزيد اللّٰه قَدّ زادَ فِيَّ أَجْرِيّ

فقد جانس الشاعر بين اسم ولده "فتح" والفعل "فتحت" وبين "يزيد" و"زاد" وفي هذا النوع يرتفع الجناس من المستوى الفني الشكلي إلى مستوى فني دلالي يصب في صميم غرض الرثاء.

ومن ألوان الجناس، الجناس المضارع وهو أن يكون الحرف المبدل مخرج المبدل منه أو قريبا من مخرجه ومن هذا اللون قول "ابن اللبانة"[1]

طَوَت مِظَلّتها لا بَلّ مَذِلتُها مِن لِمَ تَزَلّ فَوْقَهُ لِلغَمْر رايات

فالحرفان المختلفان هما (الظاء، الذال) ينتميان إلى منطقة نطقية واحدة فالظاء صوت أسناني احتكاكي، والذال كذلك، وكلاهما صوت مجهور، أما الفرق بينهما فهو فرق في ملحمي التفخيم والترقيق فالظاء صوت مفخم، والذال صوت مرقق، فالقرابة الصوتية بينهما تزيد من درجة الإيقاع الموسيقى.

يتبن لنا من خلال دراستنا للموسيقى الداخلية والخارجية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف أن أكثر الشعراء استخدموا البحور وحروف الروي الشائعة وهذا خدمة للمعاني التي أرادوها في شعر الحروب والفتن.

[1]- السعيد محمد مجيد : شعر ابن اللبانة الداني ، منشورات جامعة البصرة 1977 ، ص45.

الخاتمة

الخاتمة:

تميز شعر الحروب والفتن في الأندلس في عصر ملوك الطوائف بالثراء العاطفي وتنوع الخطابات، إذ يعبر عن الانفعالات في أدق المواقف وأصعبها ، وفي مختلف القضايا والتفاصيل، فهو يقدم مشهدا للواقع بكل تجلياته.

ومن خلال دراستنا لهذا الشعر شعر الحروب والفتن في الأندلس(عصر ملوك الطوائف) – دراسة تحليلية فنية – خلصنا إلى النتائج الآتيـــة:

* من أهم الأسباب والعوامل التي أدت إلى ظهور شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف ، كثرة الاضطرابات السياسية والفتن الداخلية وتنافس الحكام فيما بينهم ، ما خلق ثورة اجتماعية وتهديدا خارجيا أفضى إلى ثورة شعرية على سياسة ملوك الطوائف ، وثورة على الوضع المتعفن الذي آلت إليه بلاد الأندلس ،جراء توالي سقوط المدن الأندلسية بيد النصارى بدءا ببربشتر، فطليطلة ثم بلنسية، فكان لزاما أن يرافق الشعر هذه التقلبات والصراعات.

* عصر ملوك الطوائف رغم أنه من أكثر القرون اضطرابا وتشتتا ، إلا أنه من أزهى عصور الأدب الأندلسي للأسباب السالفة الذكر، فالتنافس والتناحر السياسي صاحبه غليان شعبي ،وتنافس فكري وثقافي وأدبي وشعري.

* شعر الحروب والفتن تضمن أغراضا متعددة كالرثاء (رثاء المدن والمالك الزائلة –رثاء الأشخاص)– الاستصراخ – الاستعطاف– الهجاء والمدح والفخر ،وقد غلب على الهجاء والمدح والفخر الطابع السياسي.

* معظم القصائد التي قيلت في شعر الحروب والفتن في الأندلس في عصر ملوك الطوائف تنوعت فيها الأغراض الشعرية، فالقصيدة الواحدة قد تشتمل على رثاء واستصراخ وهجاء ومدح ..الخ.

*من شعر الحروب والفتن ما هو منسوب إلى المجاهيل (شعر المجاهيل) إما لضياع اسم الشاعر بضياع الكثير من المخطوطات والآثار العربية أثناء الحملات الصليبية، وإما تمويها من الشاعر وخوفا منه نظرا لطبيعة الظروف السائدة آنذاك.

*اتسم شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف بحرارة العاطفة والانفعالات والصدق ، لأنه نابع من واقع مأساوي وعن تجربة ذاتية للشاعر.

*وظف شعر الحروب والفتن في القرن الخامس الهجري معجما لغويا ثريا ، تقاطعت فيه مقدرة الشاعر اللغوية مع ثقافته وغيرته الدينية وخبرته الحياتية، وطغى فيه المعجم الحربي والديني والعاطفي.

* تميز هذا الشعر بالتنوع في التراكيب النحوية والبلاغية، ويتماشى هذا مع مضمون ورسالة الشعر التي يريد الشاعر إيصالها.

* الملاحظ في شعر الحروب والفتن كثرة استعمال الأساليب الإنشائية كالنداء والاستفهام، والصور الفنية كالاستعارة والكناية والتشبيه ،وهذا التنوع مرده إلى محاولة الشعراء رسم صورة تحاكي وتصف هول ما حل بالأندلس، ومحاولة الشاعر تقريب الصورة للمتلقي، فكانت هذه الأساليب والصور الفنية ترجمة للواقع بكل تجلياته.

* وظف شعر الحروب والفتن معظم البحور الشعرية المشهورة مع تفاوت المستوى العددي لها ، إلا أننا نجد بروز الطويل والبسيط خاصة في الرثاء ،ثم الكامل والوافر بدرجة تالية ثم باقي البحور الشعرية .

*شكلت الموسيقى الداخلية بمكوناتها الصوتية والبلاغية ملمحا متميزا في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف ،فكان للهمس دلالة الحس المأساوي وللمد دلالة الآهات والتأوهات، وللجهر دلالة الحركة والغضب والتحريض والدعوة إلى الجهاد ...الخ، وقد طغى الجهر بقوة في شعر الحروب والفتن، كما شكل المد سمة بارزة في هذا الشعر.

* برز التكرار في شعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف بقوة وشكل ظاهرة متميزة وفريدة لأنه ينبعث من نفوس مكلومة، ويخرج من عمق مأساة جرحت كيان الأمة الإسلامية ومزقت أركانها وأزالت وجودها في أرض الأندلس.

* معظم شعر الحروب والفتن وظف الطباق والجناس.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر:

1. ابن اللبانة أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي: شعر ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، جامعة البصرة، ط 1.
2. ابن بسام الشنتيري أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت ح، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 1، 1979.
3. ابن دحية الكلبي: المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق مصطفى عوض الكريم، ط1، مطبعة مصر، الخرطوم، 1954.
4. ابن زيدون: الديوان، شرح وتحقيق كرم البستاني، دار صابر، بيروت، ط 1، 1975.
5. ابن شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك: الديوان، تحقيق، يعقوب زكي، ط 1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
6. ابن عبدون عبد المجيد ابن عبد الله: تحقيق سليم النذير، دار الكتاب، دمشق، سوريا، ط 1، 1989.
7. ابو اسحاق الالبيري: ديوان حققه وقدم له محمد رضوان الداية، مؤسسة الرّسالة 1976.
8. جلال الدين القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي،ط1، 1904.
9. الحميري أبو عبد الله: جدوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ت ح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ق1، ط 2، القاهرة، بيروت، 1973.
10. شعر ابن اللبانة: جمع وتحقيق د.محمد مجيد السعيد، جامعة بيروت 1977.
11. لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله عنان، المطبعة الخدوية، القاهرة 1866.
12. لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة ، 2004.

13. المقري أحمد محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت ح، إحسان عباس، ج1، ط1، دار صادر، بيروت، 1988.

المراجع:

1. إبراهيم انيس: من أسرار البلاغة العربية، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ط1، 1974.
2. أبو محمّد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة،كتاب ناشر للنّشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان.
3. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع رام الله، فلسطين، ط 1، 2001.
4. أحمد مختار الصباوي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ط.
5. أحمد مطلوب: فنون بلاغية (البيان، البديع)، دار البحوث العالمية، ط1، الكويت، 1975.
6. بولعراس خميسي، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، إشراف مسعود مزهودي، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار 2006 ، 2007.
7. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النّقدي، والبلاغي عند العرب، دار التنوير للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط2، 1983.
8. جبور عبد النور: المعجم الأدبي، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1984.
9. شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات بالأندلس، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، مصر، د.ط، 1989.
10. عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1976.
11. عبد العزيز عتيق: علم البيان، دار النهضة العربية، د.ط، بيروت، لبنان، دت.
12. عبد الوهاب بوقرين: ثورة اللغة الشعرية، بحث في البنية اللغوية للخطاب الشعري الجزائري، المهاجر، دار المعرفة،ط1، 2004.
13. عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط4، 1981.
14. محمد الوافي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي، 1998.
15. محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط 1، 2000.

16. محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1988.

17. مصطفى السعدني: البنيات الأسلوبية، مطابع رواي للإعلان المصافر الإسكندرية، دط، دت.

18. يوسف أبو العدوس: التشبيه والاستعارة، دار المسيرة للنّشر والتوزيع، ط1، عمان، الاردن،2007.

19. يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، مدخل إلى البلاغة العربية ،علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة، للنشر والتوزيع، ط1،عمان، الأردن، 2007.

الرسائل الجامعية:

1. انتصار خليل محمد النجار، المدن الأندلسية في شعر عصر ملوك الطوائف، إشراف علي أبو حمدة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية 2000.

2. فاطمة مفلح مرشد العبد اللات: الحض على الجهاد في الأدب الأندلسي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين، رسالة دكتوراه، الإشراف الدكتور صلاح جرار، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2007.

3. فدوى عبد الرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، إشراف د.وائل أبو صالح، ماجيستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين 1993.

4. محمد جاسر جبالي أسعد: الاستعطاف في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، إشراف وائل أبو صالح، ماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

5. نميري تاج السر محمد لقمان: الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، اتجاهاته وخصائصه الفنية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف د.صالح آدم بيلو، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات الأدبية والنقدية 2005.

المجلات:

1. رابح بوحوش: البنية اللغوية لبردة البوصري، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط،1993.

2. محمد مرتاض: مفاهيم جمالية في الشعر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1998.

فهرس المحتويات

الفهرس

شكر وتقدير

إهداء

المقدمة:..... أ

المدخل: .....

الفصل التمهيدي: عوامل ظهور شعر الحروب والفتن في الأندلس عصر ملوك الطوائف: 1-18

1- أبرز عوامل ظهور شعر الحروب والفتن: 1

أ- الصراع بين المسلمين والنصارى:..... 1

ب- الفتن والحروب الدّاخلية بين ملوك الطوائف:..... 7-9

2- ممالك عصر ملوك الطّوائف:..... 11

الفصل الأول: الأغراض الشعرية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف:..... 19-55

المبحث الأول: الرّثاء: 19-36

أ- رثاء المدن والممالك الزائلة:..... 19-30

ب- رثاء الأشخاص والملوك:..... 30-36

المبحث الثاني: الاستصراخ: 33-36

المبحث الثالث: الاستعطاف: 36-42

المبحث الرابع: أغراض أخرى (المدح، الهجاء، الفخر): 43-54

1- المدح:..... 43-47

2- الهجاء: 47-51

3- الفخر: 51-54

الفصل الثاني: الخصائص الفنية لشعر الحروب والفتن في عصر ملوك الطوائف: 55-105

المبحث الأول: المعجم الشعري: 55-64

1- المعجم الحربي: 55-59

2- المعجم الديني: 59-61

3- المعجم العاطفي:..... 61-64

المبحث الثاني: التّراكيب النحوية والبلاغية: 65-90

1- التراكيب النحوية: 65-70

أ- الجملة الفعليّة: 65-67

ب- الجملة الإسمية: 67-68

ج- كم الخبريّة "التي تفيد معنى التكثير":.....68-70

2- التراكيب البلاغية:.....70-81

3- الصورة الفنية:.....81-90

المبحث الثالث: الموسيقى الخارجية والداخلية: 91-104

1- الموسيقى الخارجية:.....91-94

2- الموسيقى الداخلية: 94-104

الخاتمة: 105

قائمة المصادر والمراجع.....107